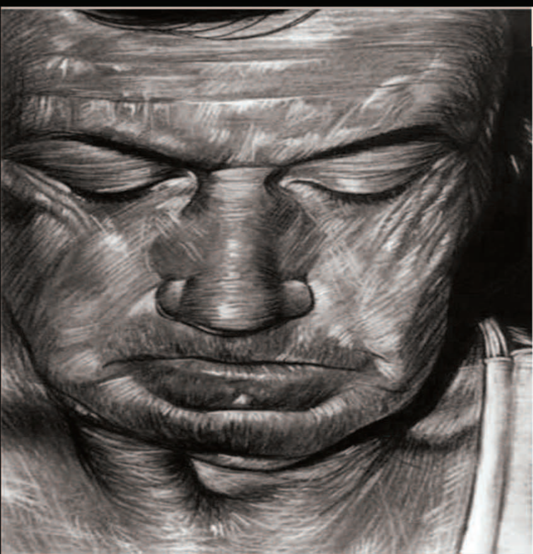
رواية

خان القناديل

محمد جلال







خان القناديل

محمد جلال

الحائز على جائزة الدولة للتفوق في الرواية لعام ٢٠٠٣

(١)

- الكتاب يا سوزان!

قالت حفيدته بدهشتها:

- في عصر الإنترنت يا جدو؟!

لم يسمع أمين القناديلي عن الإنترنت من قبل.. أوشك أن يسألها ولكنه خجل من سؤالها، فهو جدها وكبير الخان والمفروض أن يعرف كل شيء.. وما لا يعرفه من مخترعات هذا الزمن فهو بدعة من عمل الشيطان.. تذكر الكمبيوتر الذي أهداه لها أبوها الدكتور زاهر في عيد ميلادها، وبسؤاله لضبش بائع الكتب الذي يثق في رأيه لأنه يتعامل مع الكتب ويقرأ كثيرا.. قال له: إنه اختراع شيطاني يهمش الإنسان خليفة ا على أرضه، وأخذ رأيه قضية مسلمة.. ولم يسأل بعض المستنيرين من أهل الخان كعادته وخاصة علي عويضة تاجر الذهب الذي يشتهر بالتجرد في الرأي والبعد عن الهوى، وأوشك أن يطلب منها أن تتخلص من هذا الجهاز الشيطاني.. ولكنه وجدها فرحة به وهو أضعف من أن يطفئ لها فرحة فهو يحبها.. لأنه يرى فيها التعويض الإلهي عن زوجته التي ماتت محترقة في ريعان

شبابها وحزن عليها كثيرا.. فهي تشبهها إلى حد كبيـر فـي شكلها وتصرفاتها.. لذا رعاها رعاية خاصة وحرص علـى إبعادها عن تأثير أبيها الذي تمرد على ما كان يريد له مـن دراسة في الأزهر الشريف ليكون أمام مسجد الجدة الكبيـرة نظلة مرزوق، وفقيها يفتي لأهالي الخان في شئون ديـنهم، وسافر إلى الخارج ليدرس علوم الفضاء ويستقر في أمريكا.. والآن يفسد حفيدته التي يضعها فـي عينيـه بهـذه الهديـة الشيطانية فأراد أن يلعن ابنه فقال:

- شيطان..

يعطيها الحق في معارضته دون أفراد العائلة فقالـت بتجاسرها عليه:

- وسيدنا الذي يضرب الصغار بالفلقة ليس بشيطان؟!

ارتج عليه.. لقد كانت بدايته في خان القناديل تحفيظ القرآن الكريم للصغار في الكتاب، فوجد نفسه يقول:

- جدو شيطان؟!

ضحكت سوزان. نبهته ضحكتها إلى أنها لا تعـرف بدايته في الخان فضحك.. تصورت أنه يمازحها فقالت:

- دمك خفيف يا جدو

لم تزل ضحكته تكشيرة وجهه فقالت بحبها له:

- لا تغضب.. أنا الشيطانة!

وقبل أن يقول: سوزانا ملاك جدو.. فهو يدللها بهذا الاسم قالت:

- ألا تعرف يا ابني.. أن هناك شيئا اسـمه حقـوق الإنسان... وهذه الحقوق تمنعه إيذاء الصغار؟!

تضايق من كلمة ابني برغم أنه يحب سماعها منهـا فقال وقد أفصحت نبرته عن ضيقه:

- جدك يعرف حقوق الناس جيدا.. لا ينام ومظلـوم في الخان..

وأوشك أن يقول: ويفعل هذا قبل أن تولدي.. ولكنـه قال:

- قبل أن يولد الذي اخترع.. ونسي كلمة الإنترنـت فقال: هذا الشيطان:

انزعجت.. يهاجم شيئا تحبه.. فقالـت تـدافع عنـه بحماس:

- الإنترنت ثورة يا جدو..

وأرادت أن تشرح له نظام الإنترنت لتجعله يحبه كما أحبته.. ولكنه لم يتح لها الفرصة.. واستعان بطريقة ضـبش في تحويل الجد إلى هزل حتى لا يقول رأيه ويضايقها فقـال وهو يضخم صوته:

- أنا حاكم الخان.. والحاكم لا يحب الثورة..

وردد عبارة سمعها من ضبش يقولها لأهل الخان:

- مذكور في كتب التاريخ..

توقع أن تضحك ولكنها قالت في نبرة جادة:

- نحن ندخل القرن الحادي والعشرين يا جدو..

هز كتفه كما لو كان صبيا يتمرد على أمه وقال:

- وجدو لا يريد أن يدخل القرن الحادي والعشرين..

راقت لها الفكرة بسرعة فقالت، بحماسها:

- وأنا يا جدو.. هل تعرف زمنا غيره؟!

أحبها في هذه اللحظة كما لو لم يحبها من قبل وهي تقول:

- أريد أن أكون طائرا أحلق في السماء وأهبط على الكوكب الذي أختاره لأعيش عليه..

قال كما لو كانت جادة:

- لن تتركيني..

وكما لو أنها صارت طائرا فقالت:

- سأهبط علـى كوكـب الحـب وأعـيش زمـن الموسيقى..

ينزعج من الموسيقى الصاخبة التي يسمعها تنبعـث من حجرتها.. فوضح على وجهه الانزعاج.. تصورت أنـه انزعج من كلامها فقالت:

- السفر بين الكواكب سيصبح حقيقة بأسـرع ممـا نتخيل.. العلم يؤكد هذا يا جدو..

تجسد له جنون زوجته فقال:

- سبحان الخالق..

تطلعت إلى صورة جدتها التي يضعها فـوق رأسـه وقالت:

- جدتي كانت زعيمة..

أفصح صوته عن إعجاب يخفيه عنها خوفا مـن أن تقلدها في تمردها على تقاليد الخان وهو يقول:

- خلعت الحجاب وقـادت المظـاهرات ودخلـت السجن..

أوشكت أن تقول: سأكمل رسالتها ولكنها قالت:

- سأكون حزبا!

أبصرت الدهشة في عينيه فقالت:

- نحن في زمن الحرية..

قال ساخرا، يريد أن يردها عن سلوك جدتها:

- ضد جدو..

- ضد التخاف.. سيتبنى حزبي "الموسيقى" أسلوب الحياة..

قال ضاحكا:

- أنا لا أحب موسيقى الزار!

قالت جادة:

- الناس يا جدو لا ينتجون كما ينبغي.. لـو أحبـوا الموسيقى لرهفت مشاعرهم وكرهوا القبح وأحبوا الزهـور وخضروا الصحراء وزرعوا قمحهم..

أراد أن يغير الحديث.. لا يحب أن تعمل بالسياسة.. يسألها عن رحلتها إلى باريس فهي عائدة منذ أيـام ولكنـه سمعها تقول نسيت أن أخبرك بأنني تعرفـت علـى شـاب أمريكي..

يكره أمريكا.. أخذت منه ابنه فقال مستنكرا:

- في الحلم..

فقالت..

- في الإنترنت يا جدو..

وكما لو أنها قالت نكتة فضحك.. اغتاظت من ضحكته فقالت:

- الدنيا تغيرت يا جدو.. لم تعد سوق القناديل التي تتغنى بأمجادها..

قال بصوت خرج حادا على رغمه:

- لا تعرفين أمجاد سوق القناديل..

قالت في نبرة تحد:

- سأثبت لك أني أعرف..

وقالت كما لو كانت تقرأ في كتاب:

(كان بالفسطاط سوق يسمى القناديل.. ووصفه الرحالة الفارسي سنة ١٠٤٦ بأنه أغنى أسواق الدنيا.. كميات الخضر والفاكهة التي كانت معروضة فيه هائلة، وتباع فيه التحف الفنية التي لا توجد في مكان آخر..

وقد ذكر الرحالة المسعودي وصفا للاحتفال بعيد الغطاس.. لقد أمر والي مصر الإخشيد بإضاءة شاطئ جزيرة الروضة والشاطئ المقابل له بألفي مشعل، فضلا عن المصابيح التي أوقدها خاصة القوم، وأسرع الألوف من المسلمين والمسيحيين في إظهار الثراء.. يأكلون في أوانٍ من ذهب، ويتزينون بفاخر الثياب بينما تصدح الموسيقى وتتمايل الراقصات..).

قال الشيخ مندهشا:

- من أين لك هذا؟!

انتصرت عليه فقالت مزهوة:

- من الشيطان يا سي جدو..

وجد الشيخ نفسه يقول: الإنترنت.. وتنبه بعد أن قالها أنه ذكر كلمة لا يحب أن تجيء على لسانه فقال:

- استغفر ا ..

وخشي أن تتضايق فقال بسرعة:

- كان أهلنا يأكلون في أطباق من ذهب ويتزينون بفاخر الثياب والموسيقى تصدح..

وصمت. لم ينطق بعبارة (وتتمايل الراقصات).

فقالت:

- وتتمايل الراقصات.. أجدادنا كانوا أكثـر اسـتنارة منا..

قال ليهرب من حديث الراقصات الذي تستدرجه فيه:

- لماذا لا نعيد لسوق القناديل مجده القديم؟!

قالت ضاحكة:

- تحلم يا جدو.. العالم سوق تحكمه أمريكا..

أوشك أن يقول:

اللعنة على أمريكا.. ولكنه عنـدما سـمعها تقـول: أعجبت بالأمريكي لأنه قاد مظاهرة من أجل وقف تنفيذ حكم إعدام كلب قال في انفعالة:

- يتظاهرون في أمريكا مـن أجـل إعـدام كلـب ويغتالون الإنسان في كل مكان ويتشدقون بحقوق الإنسان؟!

وكما لو أنها لم تسمع شيئا مما قال فقالت:

- يحب الموسيقى التي أحبها..

- موسيقى الزار؟!

- هذه الموسيقى تعبر عما في داخلنا مـن طاقـة محبوسة تفصح عن غضبنا..

- غضبكم..
- حريقنا يا جدو..
- أي حريق؟!
- حريق من لا يجد الحب..

فتح عينه على اتساعها.. أعطاها كل حبه.. قال:

- بعد كل ما أخذتموه..

وكما لو أنها هي الشباب فقالت:

- افتقدت دفء الأسرة.. أمي تركتني وتزوجت بمن تحب، وأبي يتذكرني بهدية في عيد ميلادي!!

ووجد نفسه يقول:

- وأنا؟!

ابتسمت وهي تقول:

- بحر من الحب..

فغمرت وجهه ابتسامة.. ما لبثت أن تجمدت وهـي تقول:

- ولكن ليس في بحر جدو قطرة مـن حـب أمـي وأبي!!

أحست أنها صدمته.. تخاف عليه كما لو كان طفلها.. فقالت بسرعة تزيل عنه تأثير كلامها عليه:

- صحيح أننا نعيش في عصر الإله الذهبي ولكن ليس فيه شيء من حب زمن اللمة الذي تحكي لي عنه..

وخطفت قبلة سريعة منه وهي تقول بدلالها:

- يا عجوز.. أنت المسئول.. تحكي لي دائما عن زمن اللمة الجميل.

طفرت دمعة من عينيه.. وصلهما صراخ.. أسرعت إلى المشربية.. ارتاح لأنها أعطته ظهرها حتى لا ترى دمعته.. صرخت: النار مشتعلة في الخان..

(٢)

لا يعرف أهالي خان القناديل.. كيف اشتعلت النـار في الخان.. كل ما كان يشغلهم - في هذه اللحظة- هو إطفاء الحريق لكي لا يمتد إلى بيوتهم.. ولكن عندما تبينوا أن مـا يحترق هو أشياء الصحفي جليل أبو كريشة.. وأن الخطر قد زال عن بيوتهم تراخوا في إخماد الحريق ليلتهم كل أشـياء جليل ليشفوا غليلهم، فقد أصبحوا يكرهونه لأنه قد أساء إلـى صفاء ابنة الخان التي يحبونها لأخلاقها الحميدة، فهم يعرفون أنه قد نسج شباكه حولها حتى وقعت في حبه وأشـاع فـي الخان أنه سيتزوجها... وعندما اختلف مع أخيهـا حمـودة الجمل حول بعض الأمور المادية غدر بها انتقاما من أخيهـا بنشر حكاية حبه معها بصورة تحط من شأنها في الجريـدة التي يعمل بها حتى صارت فضيحة رددتهـا الألسـنة فـي الخانات المجاورة.. فغضب أهالي الخان وخاصـة عنـدما أخبرهم عاطف سعيد الطالب بكلية الفنـون والـذي يعـرف أسراره بأنه قد صورها بعض الصـور الفاضـحة ويهـدده بنشرها.. فذهبوا إلى كبيرهم أمين القناديلي وطلبوا منـه أن يطرده فلم يعد يطيقون وجوده في الخان بعد ما فعل.. ولكن

القناديلي رفض الاسـتجابة لهـم، وأخبـرهم بـأن الخـان لا يطرد أحدا من أولاده مهما فعل، وطلب منهم أن يتركـوا أمر عقابه له.. وبرغم طاعتهم العمياء لكبيرهم إلا أنهم قـد عصوا أمره.. وقرروا أن يتولوا عقابه بأنفسهم بجعل حياتـه مستحيلة بينهم فيضطر للرحيـل مـن الخـان، فحاصـروه بنظرات الازدراء في ذهابه وإيابه.. وما أرادوه قد تحقق... استيقظوا في الصباح بعد أيام قليلة ليجدوه قـد رحـل فـي الظلام.. وعرفوا من عاطف سعيد الذي يتابع أخباره بأنه قد ذهب ليقيم عند راقصة على علاقة بها في الزمالـك.. ولـم يرض خدوجة أم صفاء.. ابنة الصعيد عقاب أهالي الخان له، وأقسمت على الثأر منه.. فبرغم إقامتها الطويلة فـي خـان القناديل.. إلا أنها مازالت تحتفظ في داخلها بثأر الصـعيد.. فأرسلت لابنها الذي كان في لندن ليحضر.. وعـاد الجمـل لتشتعل النار في كتب جليل في قلب الخان ففطنوا إلـى أنـه يريد أن يحرق قلبه على كتبه التي يتباهى بها في الخان قبل أن تستقر رصاصته في قلبه فشـعروا بالرضـاء.. فالعقـل الجمعي لأهالي الخان في أمر يخص شرف بنت من بناته لا يعرف الرحمة.. فارتاح الرجال لما فعله حمودة الجمل.. لذا

كان لجلوسهم هذا الصباح في منتدى الخان بهجة خاصـة.. بعد أن سمعوا زغردة ظنوها زغرودة الأم خدوجة ترن فـي الخان - لتصبح بعد ذلك- زغاريد.. فشعروا أن هذا الصباح يختلف عن كل صباح.. ينبغـي أن تفـتح لـه زجاجـات الشربات.. ولكن شادي عـازف المزمـار نـبههم إلـى أن القناديلي سيغضب فهو يكـره الشـماتة.. فشـربوا أكـواب الكركديه كما لو كانت أكواب الشربات.. وراحوا يتطلعـون إلى نافذة الجمل يريدون منه أن ينزل ليعتـذروا لـه.. فقـد اتهموه بعدم الولاء للخان من كثرة أسفاره للخارج.. ولكنـه أثبت بما فعله من اقتحامه لشقة جليل أبو كريشة وإلقاء الكتب من النافذة وإشعال النار فيها في قلب الخان.. أنه مازال الابن الأصيل الذي يستجيب لأمه ليثأر لشرف أختـه الـذي هـو شرفهم.. لذا عندما دخل عليهم عزوز أحد صبيان المنتـدى مذعورا وقال لهم إنه شاهد عربات الأمن المركزي وهو قادم للخان تملكهم الخوف عليه.. فقد وجدوا فيه فارسـهم الـذي يكره النذالة ويعشق البطولة.. فقرروا أن يحمونه.. سيخفونه في عيونهم عن عساكر السلطة..

شهر ضبش الأعرج بائع الكتب القديمة بالغيظ منهم فهو يحقد عليهم لأنهم لم يقرءوا كتابا مما قرأ وأرجلهم سليمة ولا يعرجون مثله، ويسبغون البطولة على نذل أكثر نذالة من جليل.. يعرف حقيقة حمودة الجمل فهو لا يمكن أن يفعل ما فعله إلا لمصلحة خاصة لا علاقة بها بشرف أختـه.. وهـو يرسل إليه رسالة يقول له فيها الدور على كتبك إذا لم تكـف عن ذكري بكلمة المافيا.. فقال:

- ناري!!

ولكن الذين يجلسون حوله لم يكونوا في حالة تسـمح لهم بأن يستوعبوا ما يقصد بكلمة ناري فقد أسكرتهم لحظـة العثور على بطلهم الذي كانوا يبحثون عنـه ووجـدوه فـي حمودة الجمل..

علا صوت شادي وهو يقول يا نهار أسود..

فقد تذكر عصا الأمن المركزي التي هرست عظمـه وأرقدته الفراش عندما اشترك في مظاهرة.. وقال مذعورا:

- إلا عصاهم!!

قال ضبش سعيدا:

- أخبر أصحابك.. لم يذوقوا اللهلوبـة.. تنقصـهم خبرتك..

وضحك ضحكته المميزة وقال وهو يتفلسف:

- نهار الحريق.. دخانه أسود..

تضايق كريم وشهرته عجمي.. والذي لـه أصـول تركية وإيرانية ويبيع السجاد العجمـي فقـال وقـد اشـتهر بالصراحة:

- أنت لا تحب الجمل..

يسخر ضبش عندما يريد أن يهرب من الإجابة فقال:

- أحبك يا أبيض!

أراد شادي أن يقول: يا ضبش قل الحقيقة.. ولكنـه قال: يا عجمي.. الأمن المركزي قادم..

قال ضبش يستمتع بخوف شادي:

- نعم يا زمار.. خبر الحريق طار إليه فـي عشـه وهو في حضن راقصـته.. فـانحرف مزاجـه.. واتصـل بأصحابه الكبار.. فأرسلوا تجريدة لتأديب العصاة!!

وقهقهة..

قال شادي في اندهاش:

- كيف عرف؟ ينام وعينه مفتوحة على الخان؟!

نظر ضبش إلى عاطف سعيد طالب الفنون الـذي لا يحبه لأنه يفضح جهله دائما وقال:

- البركة في جاسوسه..

انفعل عاطف:

- لست جاسوسا.. أنا صديقه..

وقع العصفور في مخالب الصقر فقال:

- أرأيتم؟ يصادق من خانكم؟

شعر شادي بالتعاطف مع عاطف فقال يدافع عنه:

- طلبنا منه أن يظل على علاقة به ليعرف أخبـاره ويخبرنا بها..

وقال العجمي يؤيد شادي:

- من مصلحة الخان أن يعرف أخبار عدوه..

عثر على دليل إدانته فرفع صوته قائلا:

- أرأيتم يا أهل الخان.. جاسـوس مـزدوج.. لـن تنكر.. اعترف..

أوشك عاطف سعيد أن يصرخ في وجهه قائلا: أنت حشرة. ولن أرد عليك.. ولكنه تذكر البرنسيسة طليقة شهبندر

تجار سوق القناديل فهو على موعد معها ليرسمها في فنـاء بيته الذي حوله إلى مرسم.. فقد فـوجئ بهـا ترسـل إليـه خادمتها تخبره بأنها ستزوره في مرسمه ليرسمها.. وكانـت منذ وقعت عيناه عليها يتمنى لو أنه قد رسمها فهي نمـوذج لبنت البلد طاغية الجمال.. فنظر في ساعته.. اقترب موعـد مجيئها.. لن يصطدم به حتى لا يرفع صوته.. ويسمعه خادم المسجد الذي يعاديه ويعتبر الرسم من المحرمات ويمنعه من استقبالها.. وتضيع فرصته في رسم بنت البلـد كمـا رسـم أستاذه محمود سعيد بنت لحرى.. ولا يشترك بصورتها فـي مسابقة الكلية ويفوز بالجائزة.. فوجد أن مـن مصـلحته أن يسيطر على أعصابه ويهادنه فقال بصوت خرج خفيضا:

- أنا أحبك..
- ارفع صوتك..

قال عاطف بصوت مرتفع:

- أنا أحبك يا ضبش..

شعر بائع الكتب بأنه قد هزمه بالضـربة القاضـية فانتشى بهزيمته.. وعندما ينتشي بهزيمة أحد يتظارف فقال:

- أتعرفون لماذا أرسل السلطان جنوده؟ لأنكـم لـم تشعلوا النار في كرش أبو كرش وتركتم كتبه لي؟

وقهقه. أبصره عاطف أراجوزا في هـذه اللحظـة.. فضحك.

توقف ضبش عن القهقهة وقال في لهجة جادة:

- عرفت الآن يا فنان أنك تحبني..

قال شادي مذعورا وكأنه يحدث نفسه:

- ماذا أفعل عنـدما يجيئـون؟ الأفضـل أن آخـذ مزماري وأذهب..

تضايق العجمي منه وقال:

- جبان.. نفكر في بطلنا.. وأنت تفكر في مزمارك

لسعت ضبش كلمة "بطلنا" يعتقد أن لا بطل في الخان سواه.. خان ناكر للجميل، علمه الحكمة ويعطـي البطولـة لأفاق.. تمنى- في هذه اللحظة- لو أن جنود الأمن المركزي يدخلون الخان ويهدمونه فوق رءوسهم..؟؟

قال شادي في نبرة اعتذار:

- أخاف على مزماري الذي يطرب الخان.. يتهمونه بأنه يجمع الناس.. وهم لا يريدون أن يتجمع الناس..

برقت في رأس عجمي فكرة فقال:

- ما رأيكم؟.. نرسل عزوز للجمل ونطلب منـه أن يهرب.. ويجيئون ولا يجدونه..

نظر الجالسون إلى ضبش يسألونه الرأي.. ارتبـك ضبش أين مصلحته؟ يهرب الجمل أم لا يهرب؟ نظـر إلـى عاطف يسأله الرأي.. فهم عاطف نظرته فقال باسما:

- البطل لا يهرب..

فطن ضبش بسرعة إلى أن عاطف يـرى أن مـن مصلحته ألا يهرب الجمل ويقبض عليه ويزج فـي السـجن ليتخلص منه فهو يأخذ منه البطولة فقال:

- ا يفتح عليك يا فنان.. مذكور في كتب التـاريخ أن البطل لا يهرب..

فقال عاطف في نبرة لم تستطع أن تكتم سخريته:

- ا يفتح عليك يا جبرتي:

قفز ضبش من جلسته وراح يتمايل كأنه يرقص وهو يقول:

- أسمعتم يا أهل الخان ما يقوله الفنان؟ أنا جبرتي.. مؤرخ تاريخ خانكم ومسجل أخبـاركم وراوي حكايـاتكم...

توقع أن يسمع منهم ما ينم عن إعجابهم.. ولكنه وجد العجمي يقول: تجار سوق القناديل أرسلوا حرافيشـهم فـي الليـل.. أبصرتهم في الظلام.. فلم يستطع أن يكتم غيظه منـه فقـال ساخرا:

- صرت قطة يا عجمي.. تبصر في الظلام؟ وأيـن حراس الخان يا حدق؟!

ارتبك العجمي.. وقال ضبش ليزيده ارتباكا:

- تكلم.. هل كانوا نائمين أم غير نائمين؟!

لاذ العجمي بصمته.. فوقف ضبش كأنه يخطب:

- أرأيتم يا أهـل الخـان.. تنشـغلون بالمناقشـات البيزنطية كأهل بيزنطة.. الحراس نائمون أو غير نـائمين.. والخطر يتهددكم.. والنازية أحرقت الكتب وأطفأت المشاعل التي أوقدها أجدادكم..

ولوح بيده في وجوههم قائلا:

- البرابرة قادمون وأنتم تلهون!!

وانفجر أبو الفضل والد الشهيد الفضل الذي استشهد في سيناء والذي كان صامتا طوال جلسته معهم قائلا:

- وظللـتم صـامتين وأنـتم تسـمعون ضـحكات الإسرائيليات وهن يرقصن في الحفلة التي أقامها جليل فـي بيته..

وسبح بمسبحته الطويلة وهو يقول:

- روح الفضل هي التي أشعلت النـار فـي كتـب الخائن انتقاما لدم الشهيد..

صاح العجمي ا أكبر

اغتاظ ضـبش لأن العجمـي أعجـب بمـا قالـه "أبو الفضل" ولم يعجب بكلامه لذا عندما أبصر البرنسيسـة طليقة شهبندر تجار سوق القناديل تدخل قفز من مقعده وهال ليصرفه عن كلام والد الشهيد قائلا:

- البرنسيسة..

وعندما وجد عدم اهتمامهم بحضور البرنسيسة قـال ليخيفهم:

-ضيفة كبيرنا.. قادمة لزيارته.. وأنـتم لا تفعلـون الواجب!!

قال عاطف ليغيظه:

-لا يا حدق.. قادمة لزيارتي أنا!

فوجئ ضبش بما قاله عاطف فقال:

- أنت؟!
- سأرسم صورة لها..
- البرنسيسة تجلس أمامك في الحوش..
- لتعرف من أنا؟!

تملك ضبش الخوف.. يعـرف علاقـة البرنسيسـة بالشيخ.. حبه القديم.. ينتهز عاطف الفرصـة ويشـكو لهـا اضطهاده له فتخبر الشيخ ويغضب عليه.. من مصلحته الآن أن يخطب وده فقال متظاهرا بالإعجاب:

- يا ولد!

انتصر عاطف على عدوه في الخان فقال يـرد لـه ضربته القاضية:

- براءة..
- سحبنا الاتهام

يرد له ما فعله منذ قليل فقال:

- ارفع صوتك..

قال ضبش بصوت عال:

- سحبنا الاتهام يا فنان..

أوشك عاطف أن يقول: أسمعتم؟!.. ولكـن شـادي الذي يعرف علاقة جليل بالبرنسيسة ويفرض حمايته عليهـا ولا يسمح لأحد بالاقتراب منها قال:

- ألا تخاف؟!

ضحك عاطف ساخرا.. وقال ضبش كما لـو كـان السؤال له:

- نحن لا نخاف يا حبيبي.. جليل انتهى.. خرطنـاه للوز!

ابتسم عاطف ابتسامة النصر وهو يذهب لاسـتقبال البرنسيسة. انتهز ضبش فرصة ذهاب عاطف وراح يـتكلم دون أن يخشى مقاطعة أحد له فقال:

- أنا الذي أطلقت عليه أبو كرش

تضايق شادي من كذبه فقال:

- أنت؟!.

استهزأ به ضبش قائلا:

- نعم يا زمار!

توقع الجالسون حولهم في المنتدى أن يسخر ضـبش من شادي بنكاته اللاذعة وقفشاته.. كعادتـه فيضـحكون..

ولكن ضبش وجدها فرصة ليؤكد لهم أنه جبرتي الخان كما يقول عاطف فقال:

- مذكور في كتب التاريخ يا أخواني.. أن جد جليل الأكبر من جباة الضرائب أيام المماليك.. واشتهر بين العامة بأنه يضع كل ما يصل إليه من مال في كرشه.. فأطلقوا عليه أبو كرش.. وبعد أن توفاه ا .. خجل أهله من لقبه فحرفوه إلى أبو كريشة.. وكل ما فعلته هو أنني رددت الاسم إلى أصله..

ونظر ضبش إلى شادي باسما وقال:

- أنا جبرتي..

شعر شادي بأنه لا يمكن أن يجاريه في أكاذيبه فقال مبتسما:

- جبرتي فعلا!

سمع هذه العبارة علي عويضة تاجر الذهب الذي تخلص من ذهبه ووزع ماله على أهالي الخان وهو يدخل المنتدى فقال ضاحكا: ضبش صار مؤرخا؟؟

ليس من حقه أن يسخر منه فقد أصبح حرفوشا مـن حرافيش الخان بعد أن باع ذهبه وبعثر ماله، فقال ضبش في حدة:

- كاره النعمة وصل.

لم تعجب علي عويضة هذه العبارة وقال في صوت هادئ:

- لو كنت حقا جبرتي كما يقول شـادي.. لوعيـت حكمة التاريخ وقلت إن الغني قد وصل..

أشار ضبش إلى الكتب المرصوصة بجواره وقال:

- هذه الكتب لم تقل لي إن الفقر نعمة..

قال عويضة بخفة ظل:

- نسيت أنك مجرد حامل..

وكما لو أنه قـد قـال: امـرأة حامـل.. فضـجوا بالضحك.. فقد وجدوا فرصتهم ليسخروا منه فهـو يعيـرهم دائما بمعرفة ما لا يعرفون فقال بعصبية:

- لا أحد يقرأ مثلي في هـذا الخـان يـا عويضـة أفندي!!

قال عويضة باسما:

- المهم العقل يا ضبش أفندي!

اغتاظ ضبش..

يتهمه بعدم العقل وهو الذي يستشيره كبير الخان في كثير من الأمور لرجاحة عقله فأوشـك أن يلسـعه بكلماتـه الحادة.. ولكنه تذكر شائعة سـرت فـي الخـان لا يعـرف مصدرها تقول إنه مرشح ليكون خليفة لكبير الخان.. فـرأى أنه من الأفضل ألا يصطدم به ويعامله برقة فهو لا يسـتطيع أن يعيش بعيدا عن كبير الخان.. يعرف أنه يريـد أن يقـيم حفلة في الخان احتفالا بانتصاره على الذهب فقال ينافقه:

- نتوجك أميرا للفقراء.. نضع على رأسك التاج..

لم تعجب عويضة عبارة "أميرا للفقراء" فقال بحـده غير معتادة فيه:

- تاج الاستغناء الذي لا تعرفه يا ضبش..

لا يريد ضبش أن يدخل معه في معركة فتجاهل مـا قاله.. وانتهز ظهور الرجل الذي ينبئ ظهـوره بـالكوارث - دائما- فقال مهللا:

-خيشة وصل.. خيشة وصل..

تضايق عويضة منه.. يحب في الرجل الطيب زهده في الحياة ويعتبره معلمه في الاستغناء فقال:

- لو ارتديت خيشة مثله.. لعرفت أنه أعقل الناس.. فالدنيا لا تساوي جناح بعوضة..

تذكر ضبش أنهم كانوا يلقبون عويضة قبل إغلاقـه لمحل الذهب بالباشا فقال:

- ا أكبر يا باشا..

قال عويضة بنبرة غاضبة:

- تخلصت من ذهبي لأتخلص من كلمة باشا..

- لا تغضب يا باشا:

أعطاه ظهره وهو يقول:

- لا فائدة..

واتجه للرجل الطيب وقال وهو يرحب به:

- أين أنت يا سيدي؟ انتظرتك منذ فتـرة لأخبـرك بأنني قد تخلصت من ذهبي ووزعت مالي على الفقراء.

قال الرجل:

- الحريق قادم

يتشاءم أهل الخان من ظهوره.. لا يظهر إلا ووقعت كارثة فقال عجمي وقد تصور أنه يقصد الحريق الذي شب في كتب جليل فقال:

- أطفأنا الحريق..

قال الرجل صارخا:

- الحريق الكبير قادم..

شعر عويضة بالخوف على أهل الخان الذي يحبهم فقال:

- أي حريق يا مولانا؟؟

قال الرجل الطيب:

- لا تسألني يا مستغني.. النجوم لم تأمر بالإفصاح..

وصرخ في أهل الخان الذين فتحوا النوافذ:

- توقيع القناديلي باطل..

ألقت امرأة على رأسه الماء.. صرخ عويضة في المرأة.. قال الرجل الطيب له:

- دعها.. الماء لن يطفئ الحريق..

اقترب ضبش من الرجل.. يريـد أن يعـرف مـاذا يقصد بكلامه.. لا شيء في الخان يمر من تحت أنفه دون أن يعرفه فقال في تودد:

- أنا من مريديك.. ماذا تقصد..؟!

ورفع رأسه ليجد كبير الخان أمامه.. لقد نـزل مـن دوره العلوي.. ارتج عليه.. سيعاقبه بطرده من نعيمه لأنـه يتودد للرجل الذي يحرض الخان عليه.. لا بد من أن يفعـل شيئا يثبت له أنه مازال على ولاء له فهجـم علـى الرجـل العجوز يريد أن يمسك بخناقه.. فزجره القناديلي قائلا:

- تعتدي على ضيفي

وقال للرجل المبارك وهو يجفف له الماء الذي سقط على رأسه:

- اعذر جهلهـم.. لا يعرفـون قـدرك.. أريـد أن تكرمني بأن تأكل من طعامي.. داري لم تتشرف بزيارتـك منذ فترة..

صرخ الرجل في وجهه:

- توقيعك باطل يا قناديلي..

ارتبك القناديلي. وضح ارتباكه فـي صـوته وهـو يقول:

- أي توقيع يا رجل يا طيب؟!

انتهز ضبش الفرصة وقال ليثبت إخلاصه:

- أرأيت يا شيخنا.. رجل مخرف.. يستحق الشنق..

وكما لو أن الرجل كان طيفا واختفى.. سادت لحظة وجوم قطعها أمين بصوت انتصر على ارتباكه وهو يقول:

- عاتب عليكم..

لا يعرفون سببا للعتاب.. فصمتوا.. قال ضبش:

- لأنكم تراخيتم في إطفاء الحريق..

قال عجمي بسرعة يدافع عن أهل الخان:

- بمجرد أن أبصرت النار من النافـذة.. صـرخت واستجاب الرجال وأخمدنا الحريق..

وقال شادي:

- ولا شأن لنا بزغاريد النساء.. كنـا نجلـس فـي المنتدى..

قال الشيخ أمين بصوت غاضب:

- سلوك غير حضاري يتنافى مع تقاليد الخان..

أوشك عجمي يقول: اعذر الخان فقد سمعوا أنه قـد صور صفاء صورا فاضحة.. ولكنه صـمت وهـو يسـمع أبو الفضل يقول:

- عودتنا يا سيخنا على الصراحة..

فطن الشيخ إلى أنهم شامتون في جليل فقال:

- يا والد الشهيد.. الشماتة ليست من أخلاق الخان..

قال ضبش ينافق الشيخ:

- أجدادنا علمونا التسامح وليس الانتقـام يـا والـد الشهيد..

قال الشيخ باسما:

- أليس كذلك يا صحاب الكتب؟

فرح ضبش بعبارة "صاحب الكتب" فقال في حماس:

- الحق ما تقول يا سيد الناس.. علمتنا الحب..

فقال الشيخ:

- الحب يا صاحب الكتب يطفئ الحريق ولا يشـعل النار..

قال والد الشهيد في حزن:

- لقد ذهبت أيام الحب.. منذ رقصت الإسـرائيليات على دم الشهيد في دار نظلة مرزوق..

تضايق القناديلي.. يذكره بالحفلة التي أقامها جليـل لبعض الأجانب في فناء دار نظلة مرزوق أثناء غيابه عـن الخان وكان مـن بـين المـدعوين بعـض الإسـرائيليين والإسرائيليات فقال:

- لا تشعل النار الخامدة..

ضحك والد الشهيد.. اسـتفزت القنـاديلي ضـحكته الساخرة..

فقال:

- النار تحرق الجميع يا أبا الفضل..

قال ضبش بسرعة:

- ا أكبر.. الصواب ما تقول يا ملهم..

استكثر القناديلي على نفسه هذه الكلمة.. فقال كما لو كان يدفع عن نفسه شيئا يخافه:

- ابعد عني يا..

قال ضبش في شيء من البلاهة:

- جبرتي.. أنا جبرتي..

وأشار إلى أهالي الخان الذين يقفون حولهما وقال:

- اختاروني مؤرخا..

قال القناديلي متحمسا:

- أصابوا..

لم ينتظر ضبش أن يكمل كلامه ويقول: "أنت أفضل من يروي التاريخ..

فقال بسرعة: أسمعتم..

وكأنه قال: "يا أولاد الكلاب" وضحك ضحكته التـي اشتهر بها.. وتنبه إلى أنه ضحك أمام القناديلي فقال بسرعة:

- سأروي مآثر الرجل الذي أرسلته العناية الإلهيـة للخان لحمايته من فتوات سوق القناديل.. فتـاريخ القنـاديلي ينبغي أن يحفظ للأجيال القادمة لأنه لا يتكرر...

وحدق القناديلي بنظرته.. يرى تأثير ما قال عليـه.. فأبصرها سعيدا كطفل.. فشعر بالثقة في قدرته في أن يجعله لعبة بين يديه بحديثه الذي لا يباريه أحد فيه من أهل الخان.. وشجعه هذا على أن يتجاوز حدوده ويندفع في الحديث عندما طلب عويضة من القناديلي الإذن بالاحتفال فقال وهو يعرف أنه يوافق على إقامة الاحتفال:

- القناديلي يا عويضة ورث عـن أجـداده تقاليـد راسخة من أهمها التعاطف الإنساني.. والإذن بإقامة احتفـال بعد ما أصاب جليل يتنافى مع هذه التقاليد..

قال عويضة:

- ليس فرحا..

قال ضبش:

- انتظر يا علي حتى أكمل كلامي..

قال عويضة:

- آسف يا أستاذ.. اتفضل..

واصل ضبش حديثه في ثقة قائلا:

- إن القناديلي الذي يعيش من أجل الخان لا يجـب أن يؤجل خيرا يصيب أهله الليلة إلى ليلة قادمة..

ونظر في زهو للواقفين حوله.. اقنع القناديلي بـأن إقامة احتفال عويضة الليلة ليست شماتة في جليل..

توقع أن يرى إعجابهم به في وجوههم.. ولكنه أبصر انزعاجهم.. انزعج أهل الخان لأنه تجاوز حدوده في حديثـه مع كبيرهم وهو مجرد بائع كتب حتى لو كان في قدرتـه أن يقول كلاما لا يستطيعون قوله.. تملكه الغـيظ ولكنـه كـتم

غيظه.. ليست قضـيته الآن هـؤلاء الحـرافيش.. قضـيته القناديلي.. فاتجه إليه بنظرته.. أبصره منشغلا بالنظر لمرسم عاطف سعيد.. فطن إلى أنه قد نزل مـن دوره العلـوي لا ليلوم أهل الخان على تراخيهم في إطفاء الحريـق وإطـلاق الزغاريد بل ليرى البرنسيسة حبه القديم.. وجـد الفرصـة سانحة ليدخل هذه المنطقة المحرمة ليسيطر عليه..

ولكن عويضة جذبه من يده.. وأخـذه بعيـدا عـن القناديلي كما لو كان يريد أن يقول له سرا.. قال له:

- أريد أن تقنع القناديلي بحضور الاحتفال..

أوشك أن يقول له: لن أقنعه.. ولكنه وجد فرصته في أن يأخذ شيئا من ذهبه الذي يوزعه على أهل الخان وخاصة أنه استطاع بحديثه أن يجعل القناديلي يوافـق علـى إقامـة الحفلة الليلة ولا يرى فيها اعتداء على تقاليد الخان فقال:

- صعب..

فهم عويضة أنه يريد شيئا من ذهبه.. فناوله الخـاتم الذي كان سيتبرع به لشراء ما يعوض به أشياء جليل التـي احترقت؛ فأخذه منه بسرعة ودسه في جيب البالطو الأصـفر الداخلي وهو يقول:

- سهل..

قال عويضة باسما:

- جبرتي فعلا!!

يريد ضبش أن يذله:

- تسبني؟

انزعج عويضة. يخشى أن يقنـع القنـاديلي بإلغـاء الاحتفال فقال:

- أنا أحبك..

ضحك ضبش ضحكته التي اشتهر بها.. هزم ملـك الذهب.. فقال:

- تحب الجبرتي يا أمير الفقراء؟

وأبصر القناديلي يقبل عليهما.. ينبغي أن يتخلص من عويضة ليحدثه عن البرنسيسة فأعطاه ظهره.. وقال للقناديلي بصوت هامس:

- اذهب إليها..

وعندما أبصر على وجه القناديلي عدم الفهـم قـال بصوت مرتفع:

- البرنسيسة

- تصور القناديلي أنها قد خرجت من المرسـم دون أن يراها فقال في لهفة:

- أين هي؟

ابتسم ضبش في خبث وهو يقول:

- مازالت في المرسـم.. اذهـب وأخبرهـا بأنـك تنتظرها.. لا يجوز أن ينتظرها كبير الخان أكثر من ذلك..

شعر القناديلي بأنه تعرى أمام بائع الكتب وهو الذي يخفي حبه للبرنسيسة الذي تفجر في الأيـام الأخيـرة بعـد طلاقها من شيخ تجار سوق القناديل عن نفسه.. فلم يجد شيئا يفعله سوى أن يخرج محفظته من جيبه ويعطيها لـه وهـو يقول لها:

- نشتري ما يعوض ولدنا جليل عما أصابه..

اغتاظ ضبش عندما سمع عبارة ولدنا جليل، أوشـك أن يقول له: ولدك من يقيم علاقة مع البرنسيسة التي تحبهـا ولكنه أبصره يعطيه ظهره ويدخل الدار مسـرعا.. تحسـس المحفظة المتضخمة بالأوراق المالية الكبيرة.. وكما لو أنه قد منح له ما فيها من مال فصاح:

- أبو الكرم..

أبصر صبي المنتدى أمامه وهو يقول:

- نهارك لبن يا جبرتي باشا..

وكما لو أن عزوز هو أهل الخان.. وهـذه فرصـته لتأديبهم فقال صارخا:

- يا كلب..

وأغراه صمت صبي المنتدى أن يصفعه على وجهه.

وفتح المحفظة وأخرج منها ورقة مالية كبيرة وألقى بها إليه وهو يقول:

- اخرس..

ضرب عزوز فمه بكفه وهو لا يصدق أنه قد أعطاه هذه الورقة المالية الكبيرة وهو الذي اشتهر ببخله في الخـان وهو يقول:

أنا أخرس منذ زمن

قال ضبش للواقفين حوله من أهل الخـان بصـوت حاول أن يكون قويا ولكنه خرج ضعيفا:

-اخرجوا ما في جيوبكم

تصور شادي أنه يقلد مشهدا من أفلام الكاوبوي التي يحب مشاهدتها في فيديو المنتدى فقال:

- وأين المسدس؟

وكما لو أن محفظة القناديلي هي المسدس فأشـهرها في وجوههم فضجوا بالضحك قـال ضـبش فـي غضـب مصطنع:

- أنا لا أهزل..

قال عجمي مذهولا:

- تعني ما تقول.. نخرج ما في جيوبنا..

قال: شادي في مسكنه:

- ولكن القناديلي لم يطلب منك...

فقال ساخرا:

- ما معنى يا حدق ما قاله القناديلي: نشـتري مـا نعوض ولدنا جليل عما أصابه..

فرقعت ضحكة ضبش التي اشتهر بها وهو يقول:

- وسأفتشكم.. ولن تهربوا من يدي.. القناديلي أمـر وأنا أنفذ!

قال أبو الفضل والد الشهيد:

- لن أدفع..

وجد ضبش أنه من الأفضل ألا يصطدم به فقال:

- الشهيد دفع دمه.. أعفينا والد الشهيد..

توقع أن يراهم يخرجون ما في جيوبهم.. ولكنهم لـم يفعلوا.. ليس أمامه سوى أن يخيفهم.. يعـرف أن الخـوف يعدي في الخان.. يبدأ بشادي فقال له:

- سأصعد إلى القناديلي وأخبره بأنك تحرض الخان على العصيان..

قال شادي بذعر:

- أنا؟

- ويصبح نهارك أسود من ليلك..

أمسكه شادي من ذراعه برغم أنه لم يتحرك وهـو يقول:

- لا تصعد.. سأخرج كل ما في جيبي..

قال في نبرة شماتة:

- كل ما في جيوبك..

وراح كل واحد منهم يخرج ما في جيوبه من مـال وهم غير مصدقين أنفسهم.. لا يمكن أن يكون هذا الواقـف أمامهم هو ضبش حكواتي الخان الذي يحكي لهـم حواديـت ألف ليلة وليلة ويسليهم بنوادره.. لا بد أنـه شـخص آخـر

استطاع أن يقنع كبيرهم الذي كان يعاتبهم منذ قليـل علـى تراخيهم في إخماد الحريق وزغاريد النساء لأن هذا يتنـافى مع تقاليد الخان.. بأن إقامة احتفال عويضة - الليلـة- فـي الخان لا يتنافى مع تقاليد الخان وليست شماتة!

(٣)

- تبكين؟

قال حمودة الجمل لأختـه صـفاء، وراح يضـحك بصوت عال.. وتوقف عن الضحك ليقول بنبرة جادة:

- بدلا من أن تقولي لي مرسيه يا أبيه لأنك انتقمـت لشرف...

ولم تجعله يكمل كلامه ويقـول: العائلـة.. وقالـت محتدة:

- شرف صفاء لا تمسه كلمات

شعر بالراحة لقد كان يخشى أن تكون علاقتها بجليل قد تجاوزت الحدود فقال ليؤكد لنفسه أنها لم تتجاوز الحدود:

- مجرد كلمات..

- سخيفة تنشر في جريدة..

وجد نفسه يقول: تربية فرنساوي وهي تقول:

- وأنت تعرف أنني لا أحب الانتقام..
- ولكن أمك ابنة الصعيد الجواني تريد الانتقام..
- أرسلت لي في لندن لأحضر..
- لتحرق..

قال باسما:

- أعرف أن قراءة الروايات العاطفية أثرت عليك.. قطرات النسيم تجرح خديك، ولمس الحرير يدمي بنانك كما يقول الشاعر.. ومن أجل هذا جعلت انتقامي رومانسيا..

- تقتحم بيته في الليل وتلقي بالكتب من النافذة وتشعل النيران فيها..

قال ضاحكا:

- ويقول أهل الخان عني أني بطل.. مع أنني لم أترك البيت.. كنت راقدا في فراشي كما ترين.. كل ما فعلته أنني أرسلت له رسالة صغيرة أقول له فيها: دع سمائي فسمائي محرقة..

وراح يغني الأغنية.. وتوقف عن الغناء وسألها:

- مازلت تحبينه!

قالت في تحد:

- نعم مازلت أحبه!
- بعد هذه الفضيحة..
- الحب فضيحة؟! كل ما يضايقني هـو أنـه لـم يستأذن.. فليس من حقه وحده أن ينشر حكايـة حبنا..

قال ساخرا:

- اعتدى على حقك في النشر!!

قالت في انفعال:

- ليس من حق أحد أن يعتدي على حقي في الرد.. وحدي الذي أختار طريقة الرد.
- ولكن يا أختاه.. رد الهوانم لا يشفي غليل أمك..
- لقد كبرت.. وليس من حق أمـي التـدخل فـي شئوني..
- مشكلتك أنك ولدت في عائلة تؤمن بأن لا يطفئ النار إلا النار!
- ولكن أبي كان يرفض..

قال باسما:

- ومن أجل هذا مات!

وأوشكت أن تقول له: أنتم عائلة سـوفاج.. ولكنهـا قالت:

- أنت سوفاج!

صاح حمودة هازلا: تعالي يا أمي لتسمعي ما تقولـه ابنتك: أنا سوفاج!!

لم تسمعه الأم.. كانت مشـغولة بزجـر أم الخيـر خادمتها العجوز لأنها أطلقت زغـرودة بعـد أن أبصـرت الحريق.. وجعلت نساء الخان يزغـردن ويتصـورن أنهـا راضية على لعب العيال الذي فعله ابنها.. لا يشفي غليلها إلا رصاصة في قلب جليل..

وأدارت صفاء موسيقى رومانسية فقال حمودة:

- لا تريدين أن تسمعي صراخ أمك.. الأفضـل أن تعيشي في باريس..

- المكان الذي تسكنه صفاء هو باريس!

وقبل أن يقول لها إن مشكلتك أن أمك خدوجة ابنـة الصعيد الجواني وتقيمين في خان القناديل..

ودخلت الأم وقالت:

- طردت أم الخير..

قال الجمل مندهشا:

- لأنها زغردت..

- لأنها أعلنت للخان بزغرودتها أنني راضية على هذا الانتقام..

قال لتسمع أخته:

- ماذا يرضيك يا أم صفاء؟

- رصاصة في قلب جليل..

انفجرت صفاء بالبكاء وجرت من الحجرة، وحـاول أن يستوقفها ولكن الأم قالت له:

- دعها.. إنها كأبيها أفسدتها الروايات..

لقد أعطته أمه القلب الحديد فهتف سعيدا بها.. يحيـا الصعيد الجواني.. وأراد أن يحتضنها ولكنها دفعتـه بعيـدا عنها وهي تقول:

- أنا غاضبة منك..

فهم أنها غاضبة منه؛ لأنه لم ينفذ ما طبت منه بعـد عودته من لندن وهو الثأر لشرف أخته من جليل على طريقة أهل الصعيد.. وكان قد أخبر الجماعة التي يعمل معها عـن

صديقه جليل أبو كريشة ونفوذه.. فطلبت منه تجنيده وأتاح له هذا أن يوقع معهم عقدا سخيا.. ولذا عندما طلبت منـه أمـه قتله.. وقع في مأزق.. وهداه تفكيره للخروج من هذا المأزق بأن يلقي بكتبه من النافذة ويشعل النار فيها وترى أمه كتبـه وهي تحترق فتبرد نارها.. ويعرف جليل الذي لا يخفى عليه شيء في الخان أنه وراء النيران التي اشتعلت فـي كتبـه.. وتكون رسالة له مكتوبة بالنار تمهد الطريق للتفـاهم معـه بأفضل الشروط!! فأمسك يدها وقبلها وهو يقول:

- أنفذ أمرك يا ست الكل ولكن بطريقـة العصـر.. أقتله على مراحل.. الكتب.. فرصاصة في القلب..

وقال ضاحكا:

- الموت عذابا.. شعار العصر الذي تعلمتـه مـن مشاهدة الأفلام، وبدلا من أن يقول المافيا قال: السينما التـي شاهدتها في أوربا..

وقال في نبرة جادة:

- الدنيا تغيرت يا أم الرجال.. صارت قرية كونيـة حتى في الموت!

(٤)

قال أمين سعيدا.. تجلس أمامه البرنسيسة:

- أصيلة..
- بل أميرة يا قناديلي..

وضحكت.. فضحك.. وتعانقت الضحكتان وذابتا في شوقهما.. وتوقفت ضحكة أمين ليقول:

- أتعرفين لماذا توقفت ضحكتي؟

فقالت:

- لتسمع ضحكتي..
- ضحكتك تجعل جمالك يتفـتح كزهـرة مسـها الربيع.

قالت سعيدة:

- لم تنس الشعر..

نظر إليها بعين العاشق القديم..

قالت وهي تشم رائحة البخور:

- هل مازلت زهرتك الغجرية كما كان يحلو لك أن تسميني في أيام الشقاوة؟!

تنهد.. لقد أحبها إلى حد العشق.. وأراد أن يتزوجها ولكنها تزوجت تاجرا في سوق القناديل فقال:

- تذكريني بأحلى الأيام..

وأوشك أن يقول لها: لكنك أضعتها بحماقتكِ وفضلتِ المال عن الحب.. ولكنه صمت.. وراح يتأملها..

مازالت وحشية الجمال.. سمعها تقول: لم تجب عن سؤالي.. مازلت زهرتك الغجرية؟!

وجد ما كان يردده على سمعها أيام الشباب يقفز إلى رأسه.. فراح يردده بصوت مرتفع كما لو أنه يمتحن ذاكـرة الحب:

- قالت قطعة الجليد وقد مسها أول شعاع من أشـعة الشمس وقد مسها الربيع: أنا أحب وأنـا أذوب ولـيس فـي الإمكان أن أحب وأوجد معا.

وأكملت كلامه قائلة:

- ولا بد من الاختيار بين أمرين.. وجـود بـدون حب.. وهذا هو الشتاء القارس الفظيـع.. أو حـب بـدون وجود.. وهذا هو الموت في مطلع الربيع..

قال مندهشا:

- مازالت الزهرة الغجرية تذكر كلمات الشاعر.

تنهدت في حسرة قائلة:

- لم أعرف قيمة هذه الكلمات إلا في ليالي الشـتاء القارسة.. لقد كانت كل أيامي شتاء قارسا.. ولم يستطع العز الذي وفره زيدان لي أن يجعلني أعيش دفء الحـب.. لقـد اكتشفت أنه اختارني لأكون تمثاله الجميل الذي وضعه فـي قصره ليشهد صعوده وهو يعد ذهبه..

وقالت وقد اختنق صوتها بالحزن:

- جحيم أن تعيش مع إنسان كاره للحوار.. فأمضيت كل أيامي قادمة من وحدتي.. ذاهبة إلى وحدتي ولم يكن لي أنيس سوى الشعر..

قال ضاحكا:

- كلام الملائكة!

أرادت أن تنسى ألمها الذي شعرت بـه اللحظـة.. فأشارت إلى العود القريب منه ليعزف لها الأغنية التي تحبها قائلة:

- مازلت تعزف على عودك؟

قال وقد شعر بزعامته في الخان:

- من يختاره الناس ليسمعوا كلمته.. لا بد أن يكون صاحب قلب فنان لتلامس كلمته أوتار قلوبهم..

- ولكني ألمح يا زعيم في نبرتك هما..

- المسئولية يا أميرة.. العالم يجري.. ويريـدون أن يبتلعوا الخان، ويذوب وجودنا الذي حـافظ عليـه الأجـداد والآباء عبر كل الأزمنة ورشف رشفة من فنجـان قهوتـه السادة وقال:

- كلما عرفت شيئا عن الـزمن الـذي ينتظرنـا.. شعرت بالخوف.. ويطير النوم من عيني وأنا أفكر..

كيف أحمي الناس الذين أحبونا وأحببناهم من طوفان الأيام القادمة؟.

وأفصح صوته عن هم ثقيل وهو يقول:

- حدثتني سوزان عن شيء اسمه الإنترنت..

قالت في حماس:

- اختراع علمي مثير..

وأوشك أن يقول مازلت تقرئين.. ولكنه قـال فـي عصبية:

- بل قولي اختراع كافر!!

- لا تقل هذا يا رجل.. هذه ثورة علمية.. لا يمكن أن نتجاهله وإلا عزلنا أنفسنا عن العالم..

المهم أن نجني خيرها.. ونحمي أنفسنا من شرها..

أوشك أن يقول لها: سوزان عرفت شابا أمريكيا من خلال هذا الشيطان الذي اسمه الإنترنت.. ولكنه قال بصوت مختنق بالحزن:

لا أعرف ماذا أفعل؟ أنا حائر..

قالت بدلالها عليه:

- أنت تبحث دائما عن الحيرة!!

وأوشكت أن تقول: حيرتك الدائمة هي التي جعلتنـي أفضل زيدان عنك الذي لا يحمل هما لشيء.. ولكنها قالت:

- هذا ما جعلك لا تزورني في المرسم!!

ضحك ليتغلب على حزنه وهو يقول:

- خشيت أن يكـون حضـوري مفاجـأة للفنـان.. فتضطرب ألوانه وتفسد الصورة..

قالت باسمة..

- والسبب الجد..

- الحريق..

قالت في قرف..

- جليل الملعون..

ارتاح لذكر جليل بالملعون.. فقد عرف من ضـبش بعد ما اشترى ما رآه تعويضا عما احترق أنه على علاقـة بها..

وأقنع نفسه بأنه كان سيفعل ما فعله حتى لو عـرف بهذه العلاقة قبل أن يزوره في بيته.. فالكبير ينبغي أن يرتفع عن الأمور الشخصية في تصرفه وهو يقول:

- أنا راعي..

قالت في غضب:

- لا يستحق رعايتك فهو يعض اليد التي تمتد إليه..

أراد أن تفتح له قلبها وتحكي له ما يشاع عن علاقتها بجليل فقال بصوت خفيض:

- الأقاويل كثيرة يا برنسيسة..
- أنت تعرف طيبة قلب زيدان.. لقد وجد في جليل الشاب المجتهد فأنزله منزلـة الابـن.. ولكنـي اكتشفت أنه يعمل على خراب بيتنـا.. وجعـل زوجي يشك في..!

وأشعلت سيجارة.. وقالت:

- تصور يا أمين.. هذا الرجل الأبلة يتخيـل أنـي أخونه.. أنا البرنسيسة تخون زوجها.. لـم يعرفنـي رغـم العشرة الطويلة ونفثت دخانها وهي تقول:

- جرحني.. فطلبت الطـلاق.. وطلقنـي.. ولكـن الطلاق لم يضمد جرحي.. فقررت أن أنتقم منه بالزواج من جليل..

قال بذهوله:

- البرنسيسة تتزوج جليل؟!

- ولكني اكتشفت خيانته لي.. أقام علاقة مـع ابنـة خدوجة..

قال ساخرا:

-وخانها أيضا..

- الخيانة في دمه..

- ولكني لا أتصور أن الأميرة تتزوج من صعلوك..

- أنت تعرف البرنسيسة.. لا تنسى ثأرها..

هز رأسه قائلا:

- أعرفها.. فضلت زيدان التـاجر الصـغير عـن القناديلي و..

قاطعته قائلة:

- لا تنس أني كنت سعده.. أصبح شهبندر التجار في فترة وجيزة..!

- تفضلين الصعلوك على ابن الناس..

قالت ضاحكة:

- لم تتغير يا ابن الناس..

- وأنت لم تتغيري يا جميلة الجميلات؟

- تغيرت في شيء واحد.. أريد أن أموت في مطلع الربيع وأنا جميلة.. أرتعب عندما أتصور أنني سأستيقظ في يوم من الأيام وأنظر في المرآة فلا أجد جميلة الجمـيلات.. أجد الزمن سرقها مني..

وكأنها تتحدى الزمن وهي تلوح بقبضتها:

- أريدها أن تبقى حتى آخر نفس في العمر..

قال ضاحكا:

- من أجل هذا ذهبت البرنسيسة إلى الفنان ليرسمها في لوحة تخلد.

- الفن هو الخلود..

- الجمال هو جمال الروح.. ومن أجل هذا ستظلين جميلة طوال عمرك.

- صحيح يا ميمو..

- تذكريني بأيام الشباب.. عندما كنت تدلليني..

قالت كما لو كان شبابه سيجعل منها شابة:

- وأنت مازلت شابا!

ومد يده على العود.. وراح يداعب أوتاره.. يعـزف نغمات أغنية عشق كانت تحب سماعها في أيام الحب.. فهبت واقفة.. فقال مندهشا:

- أين أنت ذاهبة؟!

- لا تقلب علي المواجع..

لقد شعرت بحبها الكامن في داخلهـا يتجمـع مـن شرايينها ليتفجر كينبوع على صوت نغمات عوده.. فخافـت من نفسها الجامحة.. لـو انتظـرت سـتطلب منـه عـودة الماضي.. وخشيت إلا تكون اللحظة المناسبة فيجرحها وهي التي لا تحتمل المزيد من الجراح وخاصة من الرجل الوحيد الذي أحبته.. وتريد أن تتزوجه وتمضي بقية عمرها معه..

فقال ضاحكا:

- هكذا أنت تهربين في الوقـت الـذي ينبغـي أن تواجهيني فيه..

ابتسمت.

قال أمين:

- ستذهبين للرسام..

- في الغد..

- سأرى جميلة الجميلات في الصباح..

ضحكت ضحكتها التي يحبها وهـي تتـرك قاعـة الضيافة الخاصة فقال:

- لن أضحك حتى لا تذوب في ضحكتي.. أريـد أن تبقي معي حتى الصباح.. لأنام على موسيقاها..

قالت بدلعها وهي تخرج:

- يا شقي!

(٥)

سمع جليل طرقات على باب الشقة.. لا بد أنه رسول القناديلي.. يستعجل حضوره.. لقد طلب من أمه عندما زارها مع ضبش وبعض الأهالي وهم يحملون ما رأوه تعويضا عما احترق.. أن تخبره بأنه يريد أن يراه.. لن يفتح الباب ولـن يذهب إليه.. ينبغي أن ينتظره القناديلي طـويلا.. ويعـرف أهالي الخان بذلك ويذلهم في شخص كبيرهم.. لقد أجبـروه على أن يرحل في ظلام الليل- برغم أنه واجه الموت مـن أجلهم- لذا عندما بلغه خبر اقتحام شقته وإشعال النـار فـي كتبه قرر العودة سريعا للخان.. ليثبت لهم أنه ليس بالإنسان الضعيف كما يتصورون.. ويحاكمهم ويعاقبهم عقابا جماعيـا كما فعلوا معه.. برغم أنه يعرف أنهم لا علاقة لهم بما حدث له.. فلديه قناعة بأن الجمل وراء ما حدث.. فهـو صـديقه ويعلم كيف يفكر..

ووجد في الاحتفال الذي وافق عليه القناديلي من أجل عويضة فرصته لأن يعود.. فطلـب مـن عـزوز صـبي المنتدى.. عينه في الخان.. أن يخبره بأخبـار الاحتفـال.. فأخبره بأن عاطف سعيد يشعل الشموع ويضعها على نوافـذ

مرسمه كما كان الأجداد في الماضي يشعلون المشاعل فـي احتفالاتهم.. وأن أهل الخان يتبارون في إشـعال الشـموع.. وقد جاءت فرقة الموسيقى والراقصـات.. وقـد اسـتجاب القناديلي لرغبة أهل الخان في مشاركتهم احتفالهم.. فوقـت دخوله الخان في اللحظة التي يرقص فيها القناديلي رقصـة العصا التي يحب أن يرقصها في كل احتفال فـي الخـان.. فتحدث المفاجأة.. ويجده القناديلي أمامه فيجذبـه مـن يـده ليشاركه رقصته اعتذارا لـه.. فيـرفض اعتـذاره ويقـول بالصوت العالي: أرفض أن أرقص في خان يشـعلون فيـه الشموع احتفالا بالخيانة.. ويقول لأهالي الخان: بينكم خـائن لمبادئ القناديلي!

ويدخل بيته مسرعا..

وتملكته الثقة بالنفس وهو يدخل الخان.. لا يباريـه أحد في القدرة على التخطيط المحكم!.. ولكنه فوجئ بوالـد الشهيد "أبو الفضل" يلقي في وجهه بعبارة: الخـائن يخونـه ا .. فارتج عليه فلم ير القناديلي وهو يرقص.. ووجد نفسه يندفع داخلا بيته بسرعة هاربا من كلمـة الخـائن لتصـله الموسيقى عالية في شقته.. ويبصر من المشـربية عويضـة

وهو يلقي بالجنيهات الذهبية تحت قدمي القناديلي وهو يرقص بالعصا.. وأهل الخان يهللون بفرحتهم.. فبصق عليهم.. ولم ينم.. وأيقظ أمه مبكرا.. وطلب منها أن تذهب إلى فيلا الزمالك لتعدها لإقامة دائمة فقد قرر أن يترك الخان بلا رجعة!

ووقف ينظر من المشربية.. ليرى أهالي الخان يملئون الخان حياة.. فتذكر عندما كانوا يجرون كالفئران المذعورة.. وصبيان سوق القناديل يهاجمون الخان بكرات النار على أثر الشائعة التي أطلقها وتقول إن الحكومة قد قررت نقل السوق على الصحراء استجابة لرغبة القناديلي الذي ينتقم من زيدان شيخ السوق لزواجه من البرنسيسة!!

وخشي أن يحترق بيته.. فتصدى للصبيان وأنقذ الخان وصار بطلا!

لقد نسوا البطل واحتفلوا بحرق كتبه.. سيوقظ الشيطان الراقد في داخله.. ويشعل النيران.. ولكن في هذه المرة لن يكون جليل.. سيكون نيرون.. يقهقه والخان يحترق.. وراح يضحك وهو يقول:

- أنا الشيطان يا قناديلي!!

وتوقف عن الضحك عندما سمع من تقول:

- نور.. يا جليل!

لم يصدق أذنيه.. لا يمكن أن تكون نور ابنـة عـم خليل صاحب السرجة التي تركت الخان لتعيش مـع خالهـا رجل الثورة يوسف المنياوي فقال بصوت عال:

- نور بنت عم خليل؟!
- وفتح الباب بسرعة ليجد نور أمامه وهي تقول:
- كنت ذاهبة لولا أنهم في الخان قد أكدوا لي أنك في البيت..

قال ضاحكا:

- كنت أظنك..
- خائف منهم!.
- جليل لا يخاف الكلاب..

لم يعجبها وصف أهل الخان بالكلاب فوضح علـى وجهها ذلك فقال:

- اقتحموا شقتي وأشعلوا النار في كتبـي وأقـاموا احتفالا وتسابقوا في إشعال الشموع شماتة فـي

الذي واجه حرافيش السوق ومنعهم مـن حـرق الخان.. و..

وقالت مقاطعة:

- لا تحك لي.. فأنا أعرف كل شيء..

يعرف أنها كانت تقيم في أمريكا فقال:

- هناك..

فقالت:

- نعم في أمريكا.. خان القناديلي يا جليل لا يغيـب عني لحظة واحدة!

وبكت..

فقال في دهشة:

- المرأة النارية تبكي؟!

قالت بدموعها:

- انتصرت في كل المعارك وانهزمت في الخان..

- كلاب..

- لا تقل هذا لأني واحدة منهم..

وراح يتأملها والدموع تسيل على خديها وهي تقول:

- عندما أخذني خالي من عـالم أبـي.. فرحـت.. خرجت من العالم السفلي الذي كنت أعيش فيه.

كنت فلاحة في قلب القاهرة..

أرعى الماشية وأسقي الطيور وأشعل نـار الفـرن ويحرق أصابعي الخبز الساخن.. وعندما كنت أريد أن أفرح أجمع بنات الخان وأغني لهم وأرقص..

- راقصة ماهرة!

- فكرت في الهرب.. لكني أشفقت على أبي العجوز

- إلى أن زاركم يوسف المنياوي..

أصبح من الحكام.. وطلب من العجـوز أن يتـرك السرجة لأنها تسيء إليه.،. ولكنه رفـض بعنـاده.. وقـال العجوز أنه سيموت فيها..

- وذهبت معه..

- لأكشف أن عالمه هو الجحيم.. كانت مهمته فـي الثورة الأعمال القذرة.. وابتلعني عالمه شيئا فشيئا.. وعندما تناثر جسد خالي في حادث طائرة اكتشفت وأنا أبكي.. أننـي أبكي على نفسي التي تسممت بالأعمال القـذرة.. وأننـي لا أستطيع أن أغير دمي وانزويت في قصر جاردن سيتي الذي ورثته عن خالي.. وعرفت أنني لم أعد أنـا.. أخـاف أبـي

وأخشى نظرات أهلي في الخان.. فأغلقـت بوابـة قصـري علي.. ورحت أمضي أيامي في عد المال الذي تركه خـالي لي.. مال لا أعرف عدده.

قال بسرعة:

- وجليل خبير في عد المال..

قالت:

- لا أحب الهزل وقت الجد..

قال ضاحكا:

- الهزل هو الجد في هذا الخان!!

تجاهلت ما قال وقالت:

- حسبت نفسي في قصري.. أنتظر فرصة مواتيـة لأخرج.. وجاء الانفتاح وخرجت للسوق واستفدت بما علمني خالي واكتسحت سوق البغاء الاقتصادي.. وغرقت في بحـر من المال.

قال ضاحكا:

- وأنا أعرف العوم

قالت في نبرة جادة:

- مللت المال!!

فتح عينيه على اتساعها وهي تقول:

- أريد حب خان القناديل القديم.. عندما كنت أمشي فيه.. وأجد حب الناس الطيبين..

- الحب في الخان أرخص شيء.

أختلف معك.. كما اختلفت مع خالي من قبل.. كـان يقول لي: جوع كلبك يتْبعك وأنا أقول له: أطع كلبك يتبعك..

وتساءلت بحزنها العميق: هل يشتري المال الحب؟!

وأوشكت أن تقول له: أدفع كل مالي من أجل لحظة حب.. ولكنها سمعته يقول:

- المال يشتري الدنيا..!

وهزت رأسها غير موافقة وقالت:

- الخان أنكرني.. وأبي لم يعرفني..

- فقد بصره..

قالت منفعلة:

- أبي لم يعرفني يا جليل..

قال يجاريها:

- خان بلا قلب!

- أختلف معك.. خان قلبه كبير.. أعرفه جيـدا.. لا يحب الخيانة.. لقد خنت العيش والملح.. وتنكرت لشـيخوخة أبي..

قال وقد وجد فرصته ليأخذ شيئا من مالها:

- تريدين خبرتي..

ضحكت نصف ضحكة:

- سمعت عن خريجة الكباريهات التي جعلت منهـا نجمة مجتمع!!

- تريدين..؟!

قالت بسرعة:

- قلب الخان الطيب..

سقطت في قبضته فقال:

- الحب

- لقد قلت لي منذ قليل.. المال يشتري الدنيا

قال بسرعة:

- إلا حب الخان يا نور العيون.. حب عنيد

- لا تنس أنك صانع المعجزات..

- أتعرفين كم دفعت؟!

- تريد قصري

قال بالإنجليزية: لا..

فقالت:

- ماذا تريد؟

أشار بأصبعه إليها.. فقالت في ذهول:

- أنا؟!

- نعم يا نور العيون..

قالت باسمة:

- لا تلعب لعبتك معي

وقالت وهي تتنهد:

- قلبي مات.. اشتعلت فيه نار الزمن وصار رمادا..

أمسك يدها وهي تقول:

- أنا صانع المعجزات كما تقولين..

فجذبت يدها من يده وهي تقول:

- أريد القناديلي..

قال ساخرا:

- والبرنسيسة..

قالت:

- أريد أن يرضى عني..

أشار إلى الخاتم الألماظ في أصبعها وقال:

- القناديلي كالخاتم في أصبعي.. أخلعه وأضعه فـي أصبعي كما أشاء وتذكر غضبه من أجل صفاء فقال:

- على كل حال القناديلي حريص على بنات الخان.. وأنت بنت من بناته.

فطنت إلى أنه لا يعرف غضبه عليها لأنها قد فشلت في التوسط عند خالها للإفراج عن ابن حارسه الخاص الذي مات في المعتقل.. فأوشكت أن تقول له: لن تستطيع.. ولكن جليل تركها بعد أن سمع طرقات حادة على الباب وصـوت يقول: القناديلي يريدك يا جليل..

وجدها فرصة ليجعلها تشعر بقوته فقـال بصـوت مرتفع لتسمعه:

قل للقناديلي.. جليل لا يريد أن يرى أحدا.

وأغلق الباب بعنف.. وعاد إليها ليرى تأثير ما قالـه لرسول القناديلي على وجهها.. فلم يجد أي تأثير فاتجه إلـى النافذة وفتحها وصرخ في الخان:

- أنا جليل أبو كريشة.. لن أغفر لكم ما فعلتمـوه.. ستدفعون الثمن غاليا..

وعندما أبصر نافذة في دار القناديلي تفتح قال زاعقا:

- سأضرب أكبر رأس في الخان بالحذاء!!

وخاف أن يطل القناديلي ويراه فأسرع يغلق النافـذة ويقول لها: ما رأيك؟..

فقالت:

- مجنون..

ضحك وهو يقول:

- خالك كان يقول: جوع كلبك يتبعك.. وأنا أقـول: اصرخ في القناديلي يتبعك الخان..

قالت وهي تطفئ السيجارة:

- أنت داهية..

شعر بأنها قد أصبحت خاتمـا فـي أصـبعه فقـال ضاحكا:

- اصرخ في الخان يحب نور..

- وأنا في انتظارك في قصري بجاردن سيتي..

قال جليل في نبرة واثقة:

- لنشرب نخب الانتصار.. سويا..

(٦)

انتهز جليل خلو الخان من الناس في الليل ودخل دار أمين القناديلي.. يعرف أن باب القناديلي لا يغلـق.. ولكنـه وجده مغلقا.. فطرق الباب بسرعة لا يريد أن يراه أحد مـن أهل الخان وهو يدخل ليقابل القناديلي بعد أن سبه في الصباح بصوت عال من النافذة.

فتحت له سوزان. فوجئت به يقف أمامها وهو الـذي سب جدها فقالت غاضبة:

- تسبه في الصباح.. وتزوره في الليل!

وأغلقت الباب بعنف في وجهه وهي تقول:

- أخطأت يا أستاذ في العنوان..

وصل صوت إغلاق الباب بعنف إلى القناديلي فقال:

- من الطارق يا سوزان؟

قال بصوت وشى بغضبها:

- جليل أبو كرش!

يعرف أن الخان يسمونه أبو كرش لحبه للمال فقـال باسما:

- أدخلي أبو كرش..

قال منفعلة:

- كيف أدخل من سب جدو في الصباح؟
- باب القناديلي لا يغلق في وجه من سب جدو في الصباح!

تباطأت وهي تفتح الباب.. تود أن يكون قد ذهـب.. ولكنها أبصرته واقفا وهو يقول في برود:

- أعرف أن القناديلي لا يغلـق البـاب فـي وجـه "أبو كرش"!!

ودخل ليستقبله القناديلي بترحاب وهو الذي رفـض استقباله بعد نشر حكايته مع صفاء، وعزا هذا إلى أنـه قـد خاف من صوته العالي في الخان وتناسى أنه قد طلب مـن أمه أن يراه وأرسل من يذكره بهذه الرغبة.. وبرغم شعوره بالانتصار فقد وجد نفسه ينحني على يده ويقبلها ويقول:

- اغفر لي..
- جذب القناديلي يده بسرعة وهو يقول:
- ا الغفور الرحيم..
- أخطأت يا مولانا..

قال الشيخ يهون عليه ما فعله:

- من كان بلا خطيئة..

- زلة لسان..

ابتسم القناديلي، وكأنه قال بابتسامته أنه لم يسمع مـا قاله فاغتاظت سوزان من جدها وقالت:

- لقد سمعت ما قاله..لقد قال: "أضرب أكبـر رأس بالحذاء.." وتضايقت يا جدو..

تضايق القناديلي من حفيدته لتذكيره بالعبـارة التـي تناساها.. ولكنه أخفى ضيقه في ضحكة قصيرة.

خاف جليل أن يتأثر بما قالته حفيدتـه وهـو الـذي يعرف مدى تأثيرها عليه.. فيطرده ويفشل فيما جـاء مـن أجله.. وكان قد تملكه الخوف من الخان الذي يعرف أنـه لا يغفر إهانة شيخهم، بعد تجاوز حدوده بعبارته العنيفة التـي صرخ بها من النافذة.. وتصور في لحظة أنهم سـيرجمونه بالحجارة إذا رأوه فحبس نفسه في البيت طوال النهار ووجد أن نجاته في انتظار الظلام والصعود إلى القناديلي في دوره العلوي، وطلب الصفح وتذكيره بفضله على الخـان عنـدما أوقف حرب السوق التي أعلنت عليه.. وإطفاء الحريق الذي اشتعل في بيوت الخان.. وخاصة أن القضية بالنسبة له الآن

هي مال نور الكثير الذي يريده.. وهي علـى اسـتعداد لأن تدفع له الكثير مقابل حب هؤلاء الصعاليك الـذين يسـكنون الخان.. والجالس في دوره العلوي بيده مفتاح هـذه القلـوب وعليه أن يستحضر كل بهلوانيته ليكسب معركته.. فقال فـي مسكنة ليمحو أثر كلمات سوزان:

- أطار الحريق صوابي يا جدو..

قالت سوزان في عصبية:

- ليس جدك!

أشار إليه ليجلس وهو يقول:

- تشاغبك سوزان

وجلس وهو يبكي فقال له أمين:

- لا تبك يا ابني..

قالت سوزان ساخرة:

- دموع التماسيح..

قال جليل بدموعه:

- ابنك طرد من الخان واقتحمـوا شـقته وحرقـوا كتبه..

ولم تجعله سوزان يقول: وأقاموا احتفالا فقالت:

- من أعمالك السوداء

طلب الجد منها أن تكف عن الكلام..

قال جليل في خبث:

- دعها يا جدو..تقل ما تريد.. أعرف أنها غاضـبة لأني نشرت حكاية صديقتها صفاء..

فقالت غاضبة:

- ليست حكاية.. إنها خيانة!

قال في مسكنة:

- أنا خائن؟! ا   يسامحك..

قالت منفعلة:

- والخائن لا مكان له في هذا الخان..

- أرأيت يا جدو؟!

قال الجد باسما:

- لقد طلبت مني أن أتركها تقول ما تريد..

- أريد أن تحميني..

ضحك القناديلي وهو يقول:

- رفعت الراية البيضاء يا حضرة الصحفي..

قال جليل وقد تصنع الدهشة:

- لم أكن أعرف أن البنت الصغيرة قد كبرت وأصبحت كلماتها تجرح.. ألا يكفيني حريق كتبي.. ثروة عمري..؟

قالت سوزان:

- تمسكن..
- بدلا من أن تقولي كلمة تخففي من نار الحريق التي اشتعلت في داخلي..

قالت بحدة:

- من يلعب بالنار.. تحترق أصابعه..

نظر إليها الجد لتكف عن الحديث فقالت: سأخرج.. وخرجت..

قال جليل:

- هذا الجيل:

وأوشك أن يقول: الملعون.. ولكنه ابتلع كلمته عندما سمع الجد يقول: جيل الإنترنت..

- تعرف الإنترنت يا جدو؟

قال القناديلي: لقد حدثتني عنه سوزان..

وقال ساخرا:

- وتعرفت على أمريكي من خلاله!

وجد جليل الفرصة ليهاجمها فقال:

- بنت خان القناديل تتعرف على أمريكي؟

اعتدل الجد في جلسته وهو يقول:

- لقد علمت سوزان كيف تكون حرة؟ الإنسان الحر لا خطر عليه لأنه يعرف أين يضع قدمه.. لذلك لست خائفـا عليها لأنها تعرف كيف تمارس حريتها..

قال جليل ينافقه:

- بنت الخان الجديدة..

قال الشيخ في اهتمام:

- الدنيا تجري يا ابني.. وهذا الجيل لا بد أن يسابقها وإلا سيدوسه التقدم بقدميه.. ورغـم أننـي مازلـت أؤمـن بالكتاتيب إلا أنني لا أفرض رأيي على هذا الجيل.. لأنه هو الذي سيتحمل مسئولية مستقبله.. أنـا أُبصـره بقـدر مـا أستطيع.. وأنا واثق من النتيجة.. ستكون فـي صـالحنا لأن البذرة ملقاة في أرض صالحة تسمدت بالحريـة.. والحريـة دائما لا تخطئ.

وشعر جليل أن الحديد أصبح ساخنا وعليه أن يطرقه ليصل لهدفه.. فأنحنى على يده وقبلها بسرعة وهو يقول:

- ا نورك بنور المعرفة الحقة.. فلماذا تتركنى؟ أنا ضال.. أغواني الشيطان.

قال الشيخ وهو يسبح بمسبحته:

- اللعنة على الشيطان..
- أريد أن تنقذني منه..
- ينصرك عليه..
- أخطأت عندما ابتعدت عنك وأنا قادم لتبعدني عن الغواية بحكمتك.
- من أجل هذا طلبت أن أراك..
- غفرت لي ما كتبت..
- أنت تعرف أن أهالي الخان يغفرون كل شيء إلا فيما يتعلق بشرف بنت من بنـاتهم وأنـا أعبـر عنهم..
- ولكن أنت الحكمة..
- حاولت بشرائي ما اشتريت وزيارتي لـك فـي بيتك أن أجعلهم يغفرون..

قال يذكره بأنه أنقذ الخان من حريق مدمر:

- السوق لا يغفر لي أنني قد وقفـت مـع الخـان ومنعت صبيان السوق من حرقه!

- سوق شرير..

- وماذا يرضيك؟

- غفرانك لنور..

يعرف أن نور قد زارته فقال:

- نور قد أخطأت في حق الخان

- وأنت الخان.. والمسامح كريم..

قفز إلى رأس الشيخ ابن حارسه الـذي مـات فـي المعتقل، ولم تستخدم نفوذها لدى خالها لينقذه مـن المـوت فأوشك أن يقول: تطلب من حارسي عم حسين أن يسامحها.. ولكنه قال:

- الناس هم الخان..

- تعتذر لهم..

- ومن قبلهم الشيخ الذي فقد بصره..

فهم جليل أنه يقصد أباها فقال:

- تقبل يد أبيها..

وجد أمين نفسه يقول:

- وتجد الحب.. كل الحب

فرح جليل وقال بفرحته:

- الحب كل الحب.. كما لو كان يقول: المـال كـل المال..

قال القناديلي:

- أنت تعرف أن الخان لا يضن على أحد بالحـب.. وقلبه كبير ويسامح كل من أخطأ إذا اعترف بخطيئته، ونظر إليه كما لو كان يقول بنظرته:

لماذا أرسلت إلي؟

فهم القناديلي مغزى نظرته فقال:

- عد للخان

قال بخبث:

- لأمنع خطر السوق

- أريد أن يحدث هذا قبل أن أموت..

- ننقل السوق إلى الصحراء..

يعرف القناديلي أنه لا يفعل شيئا بدون ثمن فقال:

- وماذا تريد؟

- تستقبل نور..

فوجئ أمين بطلبه فلاذ بصمته. انتهز جليل لحظـة صمته فقال:

- نور ابنه من بنات الخان مثل صفاء وأنت ترعـى بنات الخان.. انقذها من غربتها.. تريد أن تموت في حضن تراب الخان..

تأثر الشيخ بكلامه فقال:

- سأستقبلها

وقفز من جلسته ولم يستوعب بقية كلامه فقد قال:

- دون أن يكون لهذه المقابلة أي تـأثير علـى رأي الخان.

وخرج مسرعا كما لو كان خائفا من أن يتراجع عن مقابلتها لو جاءت سوزان..

(٧)

- عصفورتك تطير من يدك.. وأنـت تجلـس مـع جنيتك تأكلان رزا باللبن؟!

كما أنه قد لسعه.. لا يحب نسيم أن يحدثـه شـقيقه جليل عن الجنية التي يخاويها فقال بسرعة ليهرب من حديثه:

- أية عصفورة؟!

- تهرب في كل مرة أحدثك عنها.. ولكن ليس هـذا مهما الآن.. المهم عصفورتك خطفها كاوبوي على فرسـه.. والفرس هذه المرة.. هذا الاختراع المجنون الـذي يسـمونه الإنترنت.. وعليك يا حبيبي الآن أن تخرج من حجرتك التي تغلقها على نفسك وتطلق الرصاص..

قال نسيم منزعجا:

- ما هذا التخريف؟!

ضحك جليل قائلا:

لا بد أن تدخل في صراع مع العالم الجديد من أجل عصفورتك!!

وصمت نسيم.. وقال بصمته إنه لا يفهمـه.. فقـال جليل:

- لن تفهم.. لأنك تعيش في غيبوبة..

ولوح بيده في وجهه قائلا:

- استيقظ أيها الرومانسي.. سوزان تطير من بين أصابعك.. أبصرتها في أحدى الحفلات ترقص مع بعض الشبان المجانين وأنت تعيش مع جنيتك في وهمك.. وحبك الحقيقي يطير من بين يديك..

غرق نسيم في صمته. يحب سوزان منذ تفتحت عيناه على الدنيا حبا رومانسيا.. وعندما كان يعسكر في إحدى الليالي على شاطئ بحر الإسكندرية الذي يحبه.. غفا.. وحلم أن جنية البحر أخذته دون كل الشباب الذين يعسكرون معه على الشاطئ إلى أعماق البحر.. ليجد سوزان جالسة في هالة من النور..

وقالت له الجنية: قدرك الحب المستحيل.. وأعطته شيئا من عشب البحر وهي تقول: سيجعل المستحيل غير مستحيل!

.. فلا تفرط فيه..

وأفاق من حلمه ليجد في يده بعض الأعشاب واعتقد أنه عشب الحب فقال له:

- الشيطان لن يأخذها مني..

قال جليل ضاحكا:

- الأمريكي أقوى من شيطان هذه الأيام..

- أنت تسخر مني..

- عيبك.. أنك منذ التقيت بجنيتـك والأمـور قـد اختلطت في رأسك..

- سوزان تحبني منذ طفولتها..

قال جليل بسرعة:

- لا شيء دائم.. حتى الحب.. المصلحة هي الدائمة يا حبيبي..

- وما مصلحتها في هذا الأمريكي؟

- أمريكا تحكم العالم..

- وسوزان ابنة عصرها.. لا تريد حالمـا بـالوهم، تريد من ينتمي لهذا العالم ويعطيها القوة.

- إذا لم تكف عن هذا الذي تقوله فلن ترى وجهـي مرة أخرى..

- تقاطعني يا شقيقي الوحيد.. لـن تسـتطيع لأنـك عاطفي.. أخذت من أمي الحب.. وتركت لي الكراهية!

- لماذا تكره؟!

قال باسما:

- لكي تحب أنت.. ويقال عنك في الخـان المحـب الولهان..

وضحك جليل وهو يقول:

- أنا وأنت فولة.. انشطرت إلـى نصـفين.. أنـت نصف الحب.. وأنا نصف الكراهية..

- تخدع نفسك..

- لقد ولدت في خان يكرهني..

وكأنه لم يسمعه فقال:

- وجعلتني هذه الكراهية أريد أن أقف على جمـائم أهل الخان..

- نيرون يحرق روما!

- ولن أبكي.. فهذا الخان لا يستحق دمعة واحدة..

فتح نسيم فمه في دهشة.. يسمع منه هذا الكلام للمرة الأولى.. فوجد نفسه يقول:

- شيطان..

-ليتني أستطيع أن أخرج هذا الشيطان القـابع فـي داخلي لأحرق هذا الخان الذي حرق كتبي.. عصارة فكري..

وقال في انفعال:

- أتعرف أنهم قد أحرقوني وهم يحرقون كتبي..

وأوشك نسيم أن يقول له: وكيف لم تصنع كل كتبك هذه.. إنسانا طيبا يحب الخان؟.. ولكنه قال:

- الخان الذي تسكنه سوزان لا يمكـن أن يحـرق إنسانا..

قهقه جليل، كما لو كان الشيطان الذي يقهقه وقال:

- دعنا من حديث الحريق.. أخبرني.. ماذا قالت لك جنيتك عندما كنت تزورها في زيارتك الأخيرة للإسكندرية؟. هل أخبرتها بأن العشب الذي أعطته لك لم يثمر حبا معي بل جعلني أزداد كراهية للخان؟!

غلى الدم في عروق نسيم.. لقد أخطأ عنـدما أخبـر أمه بلقاء الجنية وأعطاها العشب الذي أخذه منها.. لتحفظـه عندها.. فأعطت جليل شيئا منه.. لقد أباح بالسر الذي ما كان ينبغي أن يبوح به.. فغضبت منه الجنية ولم تعد تظهـر لـه

مهما جلس على الشاطئ وطالت جلسته في المكـان الـذي كانت تظهر له فيه..

فقال غاضبا:

- أنا لا أسمح لك بمثل هذا الحديث..

وهب جليل واقفا، تذكر أنه ينبغي أن يسرع ليلتقـي بنور بقصرها بجاردن سيتي ليخبرها بأنه قد جعلهـا تهـزم أهالي الخان وستعود على فرس القناديلي ويقـبض الـثمن.. فقال:

- ليس عندي الوقت الذي أضيعه فـي خزعبلاتـك الرومانسية!

سد نسيم أذنيه بأصبعيه.. سمع جليل صوت ضـجة في الخان.. فأسرع إلى المشربية ليبصر الدكتور قاسم والـد سوزان يقف في الخان والأهالي يرحبون به فقال:

- أبو الحبيبة عاد من سفره..

(٨)

قال الأب أمين القناديلي ساخرا من ابنه قاسم أستاذ الجامعة المقيم في أمريكا والعائد من إحدى البلدان العربية في أجازة قصيرة وهو يحتسي معه الشاي في الصباح:

- شبعت من عد المال..؟!

ضحك الابن ضحكة حرص على أن تكون وقورة في حضرة أبيه الشيخ:

- لا أحد يشبع من عد المال في زمن النفط!!

قال عم قناوي خادم الشيخ الخاص الذي سمح له أن يجلس معهما في البهو الكبير:

- إلا الدكتورة نفيسة..

قال قاسم:

- تلميذتي

قال عم قناوي:

رفضت عقدا مع إحدى الجامعات الأمريكية

قال أمين القناديلي:

- أصيلة كأبيها..

قال قناوي:

- الفضل للباشا..

نظر الدكتور حوله مداعبا وهو يقول:

- أين الباشا؟!

قال قناوي له بسرعة:

- معاليك يا باشا

ضحك قاسم ضحكة قصيرة وهو يقول:

- الباشا قد عاد..

وقال ساخرا:

- وأين الثورة التي ألغت الألقاب؟

قال قناوي في حماس:

- موجودة.. جعلت قناوي الذي جاء ماشـيا علـى قدميه من بلده إلى خان القناديل يعلم ابنته وتـدخل الجامعـة وتسافر إلى أمريكا لتصبح دكتورة وتدرس في كلية العلوم..

قال قاسم: لينهي الحوار الذي دار حول ثورة يوليه.. ففي داخله مرارة منها:

- أين نفيسة النجيبة؟

قال قناوي:

- تستأذن..

قال القناديلي لخادمه الذي يحبه:

- يا رجل يا عجوز.. الدكتورة نفيسة لا تحتاج لأذن لتدخل..

قال قناوي:

- ستفرح عندما تلتقي بأستاذها

قال الدكتور قاسم:

- أعرف أنها مطلوبة في كثير من الجامعات الغربية.. ولكنها ترفض..

انتهز الأب الفرصة ليعاتبه على قبوله العمل في الخارج وبعده عنه وقال:

- التلميذة ليست مثل أستاذها!!

قال الدكتور قاسم في نبرة وشت بتعاسته لغربته:

- أنت تعرف يا أبي سبب غربتي.. هربت من اعتقالي مرة أخرى..

وقال ساخرا:

- اعتبروني مسئولا عن انتفاضة الخبز.. وأن مقالاتي كانت سببا في ثورة الناس..

وقال ضاحكا:

- بل في جوعهم!!

قال أمين القناديلي:

- كانت مقالات نارية..

- المقالات يا أبي مهما كانت نارية لا تشعل ثورة.. لقد حبسوني في حجرة مظلمة في القلعة.. ذكرتني بما قرأت عن سجن الباستيل في فرنسا.

قال الأب:

- أيام سوداء يا ابني.. لن تعود

وقال باسما:

- وأنا أدين لهم بالشكر.. جعلوني أحقق أمنية عمري.. لقد كنت أشعر دائما بأن في داخلي رواية تريد أن تكتب.. فلقد أخذتني الرياضة البحتة من الأدب.. ولكن وأنا جالس في زنزانتي ولا أملك قلما.. وجدت نفسي تكتب الرواية.. وبمجرد أن خرجت.. أفرغتها على الورق..

قال الأب سعيدا:

- ابني صار روائيا

- ولكنها بيضة الديك يا أبي!

ودخلت الدكتور نفيسة فقال الدكتور قاسم:

- ما شاء ا .. لم أعرفك..

قالت نفيسة ضاحكة:

- وتزوجت..

وقال قناوي:

- وأنجبت ابنا اشترت له جيتارا..

- صرت جدا يا عجوز!

وقال الدكتور قاسم لنفيسة:

-زهدتِ في الفضاء؟

قالت الدكتورة ضاحكة:

- لا تخف.. سآخذه معي ليعزف لي وأنا في مركبة الفضاء.

- لماذا تركتِ أمريكا.. وأنـا أعـرف عروضـهم السخية؟

قالت بحماس:؟

- الخان أعطاني عرضا أسخى من أمريكا.

شعر أنها تعطيه درسا فأسرع يدافع عن نفسه فقال:

- أنت محظوظـة لأن الـدكتورة لـم تعمـل فـي السياسة.. لم يطرق ميكافيلي بابك..

قالت باسمة:

- طرت في الفضاء لأتركه على الأرض..

قال قاسم مندهشا:

- وتتركين الإغراءات الأمريكية؟!

قالت نفيسة في حماس:

- علمني أبي منذ صغري أن الكفن ليس له جيوب..

ودخلت سوزان عليهم وهي تقول:

- وأنا لم يعلمني أبي أن الكفن ليس له جيوب.. ولذا أشرب الدنيا حتى القطرة الأخيرة..

فوجئ الأب بنبرة الهجوم في صوت ابنته فحاول أن يعبر اللحظة بقوله:

-الفضل لأبي، خيره لا ينتهي..

قالت في تحد:

- جدي أعطاني حريتي

قال الأب ساخرا:

- تسهرين الليل وتنامين النهار!

قالت بدلعها:

- إن ليل القاهرة جميل يا شري!

لاذ الأب بصمته.. لم يجد شـيئا يقولـه. احتواهـا بنظرته.. هل هي ابنته التي كانت تتعلق به وهي صـغيرة؟ هل غيرتها الأيام؟ ماذا جرى؟

شعر بأنه ينبغي أن يتكلم فقال:

- ما أخبار أمك؟

- تزوجت سوق القناديل..

وضحكت وهي تقول: تزوجت ملكـا مـن ملـوك الفاكهة..

أراد أن يقول لها: تزوجت؟ ولكنه لـم يسـتطع أن ينطق بها برغم أنه يعرف أنها قد تزوجت.. فقد بدا - فـي هذه اللحظة- كما لو أنه قد فوجئ بخبر الزواج فوضح على وجهه الدهشة..

قالت سوزان:

- دعتني إلى فرحها الذي أقيم في السوق.. ليلة من ألف ليلة وليلة.. فذهبت متأخرة فقد كنت على موعـد مـع بعض الأصـدقاء فـي مصـر الجديـدة لأحضـر بـارتي عيد ميلاد..

لم يعجب الدكتورة نفيسة حديث سوزان عـن أمهـا فقالت:

- لقد زارتني.. وكانت غاضبة لأنك ذهبتِ متأخرة..

قالت سوزان:

- لم تخبرني بأنها ستتزوج.. وأنا لم أغضب لأنها لم تخبرني.. فهي حرة وهذه حياتها.. تفعل بهـا مـا تشـاء.. ومادامت هي حرة.. فأنا حرة.. أذهب في بداية الحفلة أو في نهايتها..

تضايقت الدكتورة نفيسة من حديثها فهـي تـرفض سلوك سوزان في الحياة ومفهومها عن الحرية.. فالحرية في رأيها التزام قبل أي شيء آخر.. فوقفت..

خاف قناوي أن تصطدم ابنته بسوزان التي يـرفض الشيخ أن يمسها أحد بكلمة فقال لابنته:

- تأخرتِ عن المحاضرات..

وقالت سوزان:

- وأنا جوعانة.. لم أفطر..

وخرجت سوزان بعد أن قبلت الجد ولم تقبل الأب..

نظر الابن إلى أبيه الشيخ وقال في نبرة حزينة:

- ليست ابنتي التي أعرفها..

قال الأب:

- الزمن يا بني..

- ولكن أين أبي الذي علمني الالتزام؟

-الأيام مختلفة.. هذه أيـام الـدش.. لقـد علمتهـا الحرية..

قال الابن وكأنه وجد فرصته ليعارضه:

- الحرية لا تعلم يا أبي..

وجد الأب فرصة ليعبر عن غضبه منه فقال:

- تعلمني يا ولد..

تفجر في داخله الخوف الذي كان يشعر بـه عنـدما يغضب عليه فقال بسرعة:

- معذرة يا أبي..

- ما دام تعليمي لا يرضيك.. فلماذا تركتها وسافرت لتعد المال؟ مزقت علاقتها بأمها ورحلت!!

قال الدكتور قاسم متراجعا:

- أنا الملوم..

قال الجد في أسى:

- عندما لا ينفع اللوم..

وعندما أبصر الحزن يطل من عينـي ابنـه شـعر بالألم.. فعز عليه أن يحزن ابنه فقال ليزيل حزنه:

- أنا لست راضيا عن سهرها في الليل ولكن عندما أعارضها.. تقنعني بأنها الحرية التي علمتها لهـا.. وأجـد نفسي عاجزا أمامها.. فأنا أحبها ولا أستطيع إغضابها..

قال الدكتور قاسم ضاحكا:

- وأغضب أنا!

قال أمين القناديلي في نبرة جادة:

- أنت مسئول.. لو لم تسافر.. ولم يجعلـه يكمـل عبارته وقال:

- ما كانت قد خرجت عن مدارها

قال الجد في انفعال:

- سوزان في مدارها الصحيح..

- أبي..

تذكر ما قالته سوزان عن الإنترنت فقال:

- نحن في عصر الإنترنت يا دكتور..

- وصلك الإنترنت!!

قال ليبدو أمام ابنه أنه لا يفوته متابعة الاختراعات الحديثة:

- من لا يعرف يموت.. وأنا كما تراني أعيش..

ودخل قناوي وهمس في أذن القناديلي قائلا: أمريكي اسمه أنطوان يسأل عن سوزان..

فتذكر ما قالته حفيدته من أنها قد تعرفت على أمريكي من خلال الإنترنت فأوشك أن يقول لابنه: قابل الأمريكي الذي تعرفت عليه ابنتك في الإنترنت.. ولكنه أبصره يقف وهو يقول:

- لا بد من الإسراع إلى المطار.. فأنا على موعد في باريس لإلقاء محاضرة في السربون.. لأعود بعدها إلى أمريكا..

فقال القناديلي ساخرا:

- طائر دائما..

فضحك الدكتور قاسم وهو يخرج كما لو كان يقول بضحكته: لكي لا أقابل الأمريكي أنطوان الذي تعرفت عليه ابنتي في الإنترنت في خان القناديلي...

(٩)

-١-

قال أنطوان وهو يجلس في منتدى الخان مع سوزان:

- لا أحب أن تحدثيني بالإنجليزيـة.. أحـب اللغـة العربية..

قالت سوزان بدهشتها:

- تتحدث العربية بطلاقة..

- أنا أمريكي مسلم.. جدي الأكبر عربي..

- هيا بنا حتى أقدمك لجدو.. حدثته عنك.. سـتكون مفاجأة له..

قال وهو يدخن نرجيلته:

- انتظري حتى أفرغ من تدخين نرجيلتي..

وكركر بنرجيلته وهو يقول:

- لذيذة..

شعرت بسعادة وهي تسمعه يتكلم العربية الفصـحى فقالت:

- تكلم.. أريد أن أسمعك.. مـن أنـت؟.. أريـد أن أعرف كل شيء عنك.. لا تكفيني معلومات الإنترنت..

وصلهما صوت المقرئ وهو يرتل آيـات القـرآن الكريم في دار الشيخ أمين فقال لها:

- اصمتي.. قرآن كريم..

قالت بدهشتها:

- تعرف هذا يا خواجة..

- أنا أحفظ بعض آيات القرآن الكريم

قالت بفرحتها:

- سيفرح جدي عندما يسمعك تتلو القرآن الكـريم.. كنت أريد أن يراك أبي قبل أن يسافر إلـى بـاريس.. أبـي دكتور في علوم الفضاء يقيم في أمريكا..

قال غاضبا:

- حرام أن تتكلمي الآن..

فصمتت.. وأشارت إلى عزوز لأن يصمت وهو يقدم براد الشاي بالنعناع فصمت دون أن يعرف لماذا تطلب منـه الصمت؟.. وبعد أن انتهت تلاوة القرآن الكريم قال لها:

- تكلمي..

قالت له:

- أنت ظريف

- ماذا يعني ظريف؟!

قالت ضاحكة:

- فلة..

- فلة اسم سمعته في تمثيلية تليفزيونية مصرية

- تجنن!!

- أنا مجنون؟

- أيه اللطافة دي؟!

ومر حامل البخور فقالت:

- بخر الخواجة من كل عين حسودة.. أنت لقطة..

- أنا لقطة..

- سكر..

قال بالإنجليزية: شوجر

- تذوب من أول لمسة من هواء الخان

- أنا قوي..

- تأكل طعمية يا قوي

نادت على عزوز وقالت له:

نريد وليمة.. أريد أن يذوق الطعام الشرقي كله

وسمعت صوت جدها مرتفعـا.. اندهشـت يكـره الصوت العالي.. فماذا جرى؟

-٢-

أخبر قناوي الشيخ أمين بأن سـوزان تجلـس فـي المنتدى مع الأمريكي الذي أقام في المضيفة.. ففار الدم فـي عروقه.. لا يوافق على هذا التصرف.. صـحيح أنـه لـم يعارضها عندما أخبرته بأنها قد تعرفت على أمريكـي مـن خلال الإنترنت.. ولكنه لا يتصور أن يحضر إلـى الخـان وتستضيفه في المضيفة وتجلس معه في المنتدى أمـام أهـل الخان.. فصاح في خادمه:

- اطرده

- ستغضب يا سيدي..

قال منفعلا:

- نفذ ما أمرت به يا قناوي..

وما لبث أن تراجع الجد.. فقد خشـي أن تعتـرض سوزان على هذا التصرف.. فيتصرفون معها تصرفا يمـس شعورها.. فنادى على قناوي الذي تمهل فـي ذهابـه فهـو يعرف أن سيده سيتراجع وقال له:

- سأذهب بنفسي..

ووضع العباءة على كتفيه.. ونزل إلى الخان مسرعا واتجه إليهما في غضب.. وعندما أبصرته مقبلا عليهما قالت له بفرحتها لأنه نزل من دوره العلوي ليرحب بضيفها:

- حماتك يا جدو تحبك..

قال الأمريكي ليجعله يضحك:

- تحبك بالفول والطعمية والبصارة..

ضحكت سوزان سعيدة لأنه نطق بأسماء الأطعمـة الشرقية.. ولكن الجد لم يضحك.. قالت الحفيدة:

- أقدم لك أنطوان الذي تعرفت عليه في الإنترنت.. وحدثتك عنه..

صمت الجد.. ولكنه شعر - بعد قليل- أنه ضـيف الخان، وعليه أن يرحب به باعتباره شيخ الخان فقال في نبرة أفصحت عن عدم ترحيبه به:

- أهلا وسهلا..

وقالت سوزان لأنطوان:

- جدو الـذي حـدثتك عنـه.. لا ي منـه لأنـه البوي فرند.. صديقي.. وبدا على وجه الجد الانزعاج..

شعر الأمريكي بأن الشيخ غير مرحب له.. وإقامتـه في المضيفة تتوقف على موافقته باعتبـاره شـيخ الخـان.. فخاف أن يطرده وتفشل خطته التي جاء من أجلها.. ففكـر كيف يكسبه.. لم يجد غير القرآن الكريم.. فوضع يده علـى خده كما لو كان.. يقرأ القرآن الكريم في المقابر.. وأغمض عينيه وهز رأسه وقال: أعوذ با من الشيطان الرجيم..

بسم ا الرحمن الرحيم..

وراح يتلو الفاتحة..

نظر الجد إليه في دهشة وهو يتلو الفاتحة..

قالت سوزان سعيدة:

- لا تندهش يا جدو.. أنطوان يحفظ القرآن الكريم

قال الجد بدهشة:

- أنت مسلم؟!..

قال أنطوان وقد شعر بأنه قد انتصر عليه:

- وموحد با ..

انزاح عن قلب الجد الغم الذي شعر به عندما أخبره خادمه بأنها تجلس مع الأمريكي في المنتدى، فقال بحـرارة كما لو كان يعتذر عن برود كلماته في أول اللقاء:

- شرفت خان القناديل..

قالت لتفرحه:

- أنطوان يعرف تاريخ سوق القناديل

- وأريد أن أزوره لأقارن بين أيامه الذهبية وأيامـه الحالية..

وكأن الجد انتهز الفرصة ليترحم على الماضي فقال:

- عندما كان الناس يأكلون في أطباق من ذهب..

وقال الأمريكي ضاحكا وهو يلتهم قرصا من الطعمية الساخنة:

- والآن يأكلون أطباق الطعمية.. طعمية القنـاديلي لذيذة!

خشيت سوزان ألا يعجب جدها هزل الأمريكي فقالت بجدية:

- والآن الأطباق الفضائية، ولم تجعـل الأمريكـي يقول شيئا.

وقالت:

- نعرف أخبار العالم لحظة حدوثها..

قال الجد بنبرة وشت بحزنه:

- أخبار الهياج الذي يشمل العالم

قالت سوزان:

- حياة يا جدو.. الدنيا فيلم سينمائي مثير..

وقال أنطوان وهو يأكل قرصا آخر من الطعمية الساخنة:

- وأنا أحب أن أتفرج على الفيلم المثير وأنا آكل الطعمية.

قال الجد ضاحكا:

- وأنا لا أحب الفيلم المثير وأنا آكل الطعمية.

ضحكت سوزان.. وقالت وهي تنظر إلى أنطوان بإعجاب:

- من أجل هذا جاء أنطوان..

نظر إليه الشيخ، فهم من نظرته أنه يريد أن يعرف لماذا جاء إلى الخان فقال بجدية:

- أنا قادم في مهمة

قالت سوزان بسرعة:

- سيخرج فيلما..

قال القناديلي:

- أنت مخرج!

قالت سوزان:

- وله عدة أفلام اشترك بها في مهرجانات عالمية

وجد الأمريكي فرصته فقال:

- أنا قارئ للتاريخ.. قرأت الجبرتي.. وكل ما كتبه المستشرقون عن مصر المحروسة..

شـعر أمـين القنـاديلي بـالزهو وردد عبـارة "مصر المحروسة" كما لو أنه صاحب مصر المحروسة!

قال الأمريكي في حماس مصطنع:

- كل من كان يريد أن يبني إمبراطورية كان يجيء للمحروسة باعتبارها مفتاح الدنيا..

نبهت سوزان جدها إلى أنه يقول عبارته التي يرددها دائما بأن مصر مفتاح الدنيا..

قال أنطوان:

- مصر القديمة هي قلب المحروسة.. وأنت شيخها الآن..

وانتفخت أوداجه والأمريكي يقول:

- تقيم العدل المستحيل في هذه الأيام.. أنت عمر بن عبد العزيز..

قالت سوزان فرحة!

- الخليفة العادل..

انتظر أنطوان ليرى تأثير ما قاله عليه.. فوجد أنه قد صادف هوى في نفسه.. فابتسم.. ما توقعه قد حدث.. انطلت اللعبة عليه.. وصار قرص طعمية في فمه فقال ليكمل لعبته:

- عدلك وصلنا في أمريكا..

قال الشيخ في سعادة:

- وصلهم..

- وأرسلوني لأصور فيلما عن العـدل فـي خـان القناديل لتراه الدنيا كنموذج يحتذى في عصر العولمة!

فوجئ الشيخ بكلمة العولمة.. لا يعرف معناها.. أراد أن يسأله.. ولكنه عمر بن عبد العزيز الذي وصل عدله إلى أمريكا.. وأرسلوا أنطوان إلى خان القناديل لتصوير عدله في فيلم كمثل يحتذى به.. لا ينبغي أن يبدو جاهلا بمعنى هـذه الكلمة. فهز رأسه كما لو كان يعرف معنى العولمة.. تعرف سوزان أن جدها يجهل معنى العولمة.

فقالت:

- العالم الجديد عالم واحد يا جدي..

قال الجد باسما ليطمئنها إلى أنه ليس جاهلا:

- أعرف العالم الواحد

ونظر إلى أنطوان وقال ساخرا ليخلص نفسـه مـن الجدل الذي يوشك أن يتورط فيه:

- ماذا تريد الست عولمة منه يا سي أنطوان؟!

ضحك الأمريكي..

قالت سوزان بسرعة:

- تريد الدنيا سوقا..

قال الشيخ بسرعة:

- سوق القناديل

قالت سوزان:

- جد يا جدو

قال أنطوان:

جدو يتكلم جد يا شيري

وقال وهو يملأ فمه بالطعام:

- من أجل هذا أنا أجلس بينكما الآن.. أريد أن أقول للعالم الجديد من خلال فيلمي أن ما يحدث الآن في الدنيا لـه جذوره في مصر المحروسة.. عندما كانت سلة غلال العالم.

شعر القناديلي بالزهو فقال:

- ويأكل المصريون في أوانٍ من ذهب.. ويتزينون بالحلي وتصدح الموسيقى.

وقال أنطوان يكمل كلام القناديلي:

- وتتمايل الراقصات

وقبل أن يقول القناديلي شيئا قال الأمريكي:

- العولمة تريد أن تعيد لمصر عصـر الموسـيقى والرقص.. من أجل هذا أريد أن أذهب إلى سوق القناديل.

قال الشيخ من فرط حماسه:

- سوق القناديل يأتي إليك هنا..

قال أنطوان:

- نذهب إلى الماضي

قالت سوزان:

- إلى المستقبل..

ضحك الجد وهو يقول:

- سوزان مجنونة بالمستقبل

وقال أنطوان:

- وأنا أحب الجنون سواء كان في الماضي أو في المستقبل.. وضحك فتناثر الطعام من فمه وهو يقول:

- العولمة جنون.. هل يمكن أن يحكم الدنيا رجل واحد في بيت أبيض؟

وجد أمين القناديلي نفسه يقول ساخرا:

- لتصبح أيامنا سوداء..

وكما لو أنه قال نكتة فضحك أنطوان.. ولم تضحك سوزان فلم يعجبها أن يسخر جدها من حديث أنطوان..

وجاء حامل المبخرة فقال أنطوان:

- بخر جدو.. لأنه يقول كلاما حلوا.. أيامنا سوداء!!

(١٠)

-١-

شعر نسيم بالراحة وهو يرى أمين القناديلي يخـرج مع الأمريكي وهو يضع يده في يده كما لو كانا صديقين.. لا يمكن أن يكون مجرد شخص تعرفت عليه سوزان من خلال الإنترنت.. لا بد أن الشيخ يعرفه منذ زمن.. لقد دعاه بعد أن شاهد سوق القناديل لأن يمضي عدة أيام في مزرعتـه فـي صحراء الهرم وهو لا يفعل هذا إلا مع صديق.. لقـد كـان شقيقه جليل يستفزه عندما قال له أنها أحبت الأمريكـي مـن خلال الإنترنت.. فهو يكره فيه حبه الرومانسـي لسـوزان ويراه ضعفا.. ويريد أن يعلن عن حبه بقوة حتى لو أشـعل الخان نارا.. ولكنه يرفض عنف أخيه ويرى أن حبه الصادق ليس في حاجة إلى إعلان.. فأنفاسه تعلن عنه.. تذكر عيـد ميلادها.. يريد أن تكون هديته غير مسبوقة.. قالت له - منذ أيام- إنها تحلم بأن تصبح للخان حديقـة.. ينتهـز فرصـة سفرها مع جدها إلى المزرعة وغيابها عدة أيام ويحقق لهـا حلمها.. فأسرع إلى الدكتورة نفيسة التي يربطه بها علاقـة صداقة حميمة.. وطلب منها المساعدة فتحمسـت وارتـدت

الجينز وراحت تعمل معـه فـي بـدر الخـان بالخضـرة والزهور.. وعادت سوزان بعد أيام من المزرعة. انتظرهـا نسيم على أحر من الجمر. يريد أن يرى وجهها وقد تحقـق حلمها وهو يقول لها: هذه هي هدية عيد مـيلادك.. ولكـن عندما أبصرته راحت تحدثه عن أنطوان. لقد اكتشفت فيه أنه نوع آخر من الشباب.. ثقافته شاملة يعرف تـاريخ مصـر جيدا.. ولم تتح له فرصة الحديث عن اشتراك أهل الخان في تجميله فاغتاظ.. أراد أن تكف عن حديثها عـن الأمريكـي فقال:

- زرعنا الزهور التي تحبينها..

قالت وكأنها لم تسمعه:

- طلبت من جدو أن يزرع الخان بالزهور..

وقبل أن تقول له: لا تؤجل لي طلبا قال:

- أنا..

قالت ضاحكة:

- تركت المحاماة واشتغلت جناينيا!!

كتم غيظه وهو يقول:

- لم أكن وحدي.. أهالي الخان اشتركوا معي فـي تجميله.. كنا نسابق الزمن حتى ننتهي من تجميل الخان قبل أن تعودي..

فقالت في شيء من الغرور:

- أهالي الخان لا يحبون إزعاجي!

ثم قالت:

- على فكره لقد حدثت أنطوان عن جنيتك..

قال في غضب:

- ليست خرافة..

قالت باسمة:

- هذا ما يؤمن به أنطوان.. يريد أن يذهب معك إلى شاطئ البحر ويصورها في فيلم..

قال منفعلا:

- هذا عبث..

قالت كما لو أنها لم تسمع عبارته:

- سيكون فيلما مثيرا يفوز به في المهرجانات..

تضايق من نفسه لأنه قال منفعلا "هذا عبث".. لقـد أمضى أياما مع الدكتورة نفيسة في عمل شـاق مـن أجـل

الانتهاء من إزالة عدوان صبيان سوق القناديل على الخـان وتجميله بالخضرة والزهور ليكون الهدية التي يقدمها لها في عيد ميلادها.. وعندما تعود يقول لها: هذا عبث.. لقد أخطأ.. يغير الموضوع ويعتذر لها.. فقال:

- تصوري يا سوزان.. الـ دكتور نفيسـة أظهـرت مهارة في غرس الزهور..

ضحكت ساخرة وقالت:

- عالمة الفضاء ابنة عم قناوي.. أصلها فلاحة

لم يعجبه سخريتها.. فوجـد نفسـه يقـول: هديـة عيد ميلادك..

قالت في شيء من الانفعال:

- هدية عيد ميلادي أن تنتهي الخرافة من الخـان.. نحن في عصر الإنترنت يا نسيم!

وكما لو أنها قالت له: أحب الأمريكي ولا أحبـك.. فشعر بدمعة تفر من عينه وهي تتركه وتذهب إلى المنتـدى الذي كان يجلس أنطوان فيه يحدث أهالي الخان.

أبصرته الدكتورة نفيسة يقف وحيدا في الخان فأخفى دمعته في ضحكته وهو يقول لها:

- أعجبتها الزهور التي زرعتها!

ضحكت نفيسة ضحكة ساخرة فهي تعـرف أنـه لا يقول الحقيقة.

وأنقذه من ضحكة نفيسة الساخرة ظهور ضبش وهو يحمل بعض الكتب الأجنبية ويقدمها له ويقول:

- الجنية اختفت من عندنا لتظهر عند الخواجات!!

قلب نسيم الكتب الواردة من الخارج التي تتحدث عن عالم الجنيات في اهتمام وهو يقول:

- والإنترنت؟!

قال بائع الكتب:

- تركوه لحفيدة الشيخ ليظهر أنطـوان فـي خـان القناديلي ويؤم الناس في الصلاة!!

وضحك ضحكته المميزة التي اشتهر بها وهو يقول:

- سيتحول المنتدى من مقهى عربـي إلـى مقهـى أفرنجي يتكلم بالإنترنت!

وأوشك أن يقول: على جثتي ولكنه قال لعزوز:

اخلع الطاقية الشبيكة والـبس البرنيطـة.. أنطـوان وصل!!

واستمر في ضحكه..

(١١)

-١-

قالت وداد للدكتورة نفيسة:

- عالمة الفضاء تلبس الجينز وتحمل الحجارة فـي الخان؟!

ضحكت نفيسة ضحكة ماكرة فقالت وداد بخبثها:

- اسمحي لي يا دكتورة..

وصمتت.. خشيت أن يغضبها كلامها عن الحـب.. فغضبها جامح.. فابتسمت نفيسة قائلة:

- تقصدين الحب.. قولي الكراهية..

- أعرف أنك تكرهين الدور العلوي..

- لأنه يشعرني بالدونية..

تشعر وداد بالشعور نفسه نحو الدكتورة نفيسة.. فقد كانت زميلتها في المدرسة وفشلت بينمـا نجحـت نفيسـة.. وتفوقت وسافرت إلى أمريكا لتعود بالـدكتوراه فـي علـوم الفضاء واختارتها لتكون سكرتيرتها.. أرادت أن تذكرها أنها مثلها فقالت:

- لولا..

فهمت نفيسة أنها تقول أنه لولا الدور العلـوي مـا وصلت إلى ما فيه فقالت في ثقة:

- كنت سأصل.. فأنا منذ صغري أحلم بالتحليق في السماء.. ما من شيء أردته إلا وتحقق!

غاظتها ثقتها الزائدة فقالت:

- إلا سوزان..

قالت نفيسة ضاحكة:

- أنسيت نسيم؟!

- صديقك..

- بل حبيبي.. الصداقة هي الحب الحقيقي!

وكما لو أنها قد غرست نصلا حادا في قلبهـا فهـي تكره علاقتها بنسيم.. تريد أن تغمض عينيها وتفتحهما وتجد علاقتهما قد انتهت.. تهزمها في نسيم مثلمـا هزمتهـا فـي مدرجات الجامعة!

قالت نفيسة تبرر لها انتصارها على سوزان:

- أنا ونسيم إنسان واحد.. عندما كنت صبية احتـاج إلى دم فلم يجدو سوى دمي.. نقلوا له دمي.. دمي يجري في شرايينه..

كرهتها في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضـى.. أرادت أن تتركها وتذهب.. ولكنها تـذكرت مهمتهـا.. لقـد أعطاها جليل جهاز تسجيل وطلب منها تسجيل حديثها معها.. شعرت بأن انتصارها عليها الآن في أن تجعلها تتكلم وتسجل لها حديثها معها وتحمله لجليل الذي تعمل معه فقالت لتجعلها تتكلم:

- والأمريكي..

وكما توقعت تدفقت في الحـديث قائلـة: سينتصـر أنطوان.. سوزان تحلم بالقرن الحادي والعشـرين.. ونسـيم يعيش مع جنيته في البحر.. والسماء والبحـر لا يلتقيـان.. وعندما يفيق يصطدم بالحقيقة.. يجري إلى حضن أمه وأنـا أمه فالحب أمومة..

-٢-

- برافو جاسوستي الحسناء..

قالها جليل أبو كريشة بعد أن سمع التسـجيل الـذي سجلته وداد للدكتورة نفيسة..

فقالت وداد:

- أريد أن أسألك سؤالا.. ماذا ستستفيد من معرفتك للحديث الذي دار بيني وبين نفيسة؟!

ضحك. كأنه يسمع نكتة وقال:

- سؤال حضانة.. مع أن التسجيل يقول إنك أستاذة!

- الأستاذة تريد الاستنارة..

- في علم المخابرات يا دودي.. الأشياء الصـغيرة هي الأشياء الكبيرة.. لغز.. أليس كذلك؟

قالت وهي تهز رأسها:

- فهمت.. الصغيرة سكة الكبيرة..

- أحب الذكاء يا صغيرتي..

وكركر بنرجيلته وهو يقول:

- أريد أن أسمع دبة النملة في الخان.. وعندما أمـد بصري أرى ما أريد أن أراه.. وأصبح سلطانا

- أنت سلطان فعلا.. الشيخ في يدك

- خلقت لأكون الأوحد.. وسلاحي المعلومة

- من أجل هذا اشتريت كل هذه الأجهـزة الحديثـة التي حولنا..

- من يملك المعلومة.. يملـك القنـاديلي والنـاس والمستقبل..

انتهزت الفرصة وقالت:

- وما نصيبي؟!

كاد أن يقول لها أنا: ولكنه قال ضاحكا: أخي نسيم..

تصنعت الدهشة وهي تقول:

- تتجسس على دقة قلبي؟!

قال يبادلها خبثا بخبث:

- إذا لم يسمع الأستاذ دقة قلب تلميذته فلـن يكـون جديرا بأن يكون أستاذها..

- ولكني لا أحب نسيم..

- أعرف.. تريدين أن تهزمي الدكتورة في قلبها كما هزمتك في مدرج الجامعة.. تفعلين معها مثلما تفعل هي مع سوزان..

وقال وهو يضحك:

- مسكين أخي.. غافل عن كيد النساء

- يأكل رز بلبن مع جنيته!

- وما رأيك لو أعطيته هذا التسجيل؟

- تريد أن تذبحني..

- أذبح عصفورتي؟ صدقيني.. لن يصدق ما يسمع.. فهو يعيش مع جنيته..

تذكرت أنه طلب منها أن تخبره عما يتردد في الخان عن الذي حرق كتبه فقالت:

- لم تسألني..

- عرفته

- من هو؟

أوشك أن يخبرها ولكنه تراجع وقال:

- أنا مؤمن بالحكمة الصينية التي تقول: اجلس على حافة النهر تجيء لك جثة عدوك..

وفجأة وقف ودفع النرجيلة بقدمه.. فسقطت الجمرات المشتعلة على سجادة الحجرة وقال:

- رأس الأفعى..

قالت:

- سوزان..

- غبية

- أنطوان..

أراد أن يضللها فقال:

- ذكية

تريد أن تكشف لغز الإمام الذي خرج من الإنترنـت ليؤم الناس في الخان للصلاة!

أوشـك أن يقـول لهـا: رجـل الموسـاد يتسـتر بالأمريكان.. لكنه أمسك جمرة مشتعلة بأصابعه فصرخت:

- النار..

قال ضاحكا:

- خلقت للنار!!

(١٢)

فوجئ جليل بالجمل يدخل عليه في مكانه السـري..

فقال بذهوله:

- كيف عرفت أنني هنا؟

قال الجمل ضاحكا:

- لتعرف أنك تحت السيطرة!

- عصابة؟

قال الجمل في برود أعصاب:

- نعم..

- وأنت رئيس العصابة؟!

- افهم ما تريد..

- من أنتم؟!

- مافيا..

- أفندم..

- أرسلنا لك رسالة..

- الحريق..

- فهمتها؟!

- أتظنني غبيا!

- لو كنت غبيا ما جئت إليك..

-لم يكن الحريق لأنني قد نشـرت قصـة علاقتـي بأختك

- الظاهر..

- والباطن..

- صرت مافيا.. ونحن لا نسمح بوجود مافيا أخرى في الخان..

- ماذا تريدون؟ نسبة على كل عملية أقوم بها

وأخرج جليل القلم من جيبه وقال ضاحكا:

- كلما كتبت مقالة تأخذون نسبة على كل كلمة!

ولوح بالقلم وقال:

- هذا سلاحي..

وضحك، قال الجمل:

- نحن لا نمزح

- وأنا جاد

- أنت أخطر أنواع المافيـا.. تتسـتر بالصـحافة، والكلمة أقوى من الرصاصة في بلد تخاف ما تختشيش!!

قال في مسكنة:

- أنا صحفي غلبان!

- ونحن نريد الصحفي الغلبان..

- أخطأتم الطريق..

قال حمودة الجمل ساخرا:

- الغلبان الـذي لا يصـافح أحـدا إذا أخـذ ثمـن المصافحة!

قال جليل ساخرا:

- تريدون نصيبكم؟

- بصراحة.. نريدك أنت.. وسنمهلك أسبوعا

ووقف الجمل وهو يقول:

- ولن تستطيع أن تهرب منا.. نحن نعـرف أنـك تنسج شباكك حول القناديلي حتى يصـالح نـور.. وتأخـذ الثمن.. ستجعلك شريكا لها في الشـركة العالميـة متعـددة الجنسيات.

وضحك وقال: تريد أكثر

وأدار جهاز تسجيل صغير. سمع صوته وهو يقول:

- خلقت لأكون الأوحد وسلاحي المعلومـة.. مـن يملك المعلومة.. يملك القناديلي والناس.. والمستقبل

- تتجسسون علي؟!

- يكفيك هذا الآن..

وقال الجمل وهو يخرج:

- نحن في انتظارك..

(١٣)

تفرسها وهي تضع مجموعة الصور التي التقطته‍ـا للأمريكي أنطوان وسوزان والشبان الذين يرتدون الملابـس السوداء، وقد أطالوا شـعورهم، يرقصـون علـى نغمـات موسيقى صاخبة بجوار الأهرامات علـى ضـوء القمـر.. وأصغى إليها في اهتمام وهي تحكي بحماس كيف استطاعت أن تصور هذه الصور برغم رفض أنطوان.. قفز إلى عينيه وجه الجمل وهو يدير جهاز التسجيل الصغير ويسمع صوته وهو يقول: خلقت لأكون الأوحد وسلاحي المعلومـة. لقـد باعته وداد. امتدت يده في عصبية ومزق صـورة أنطـوان وهو يراقص سوزان.. فصرخت قائلة:

- تمزق السبق الصحفي؟!

وبكت. احتواها بنظرة فاحصة.. هل تسـتطيع هـذه الفتاة، الجالسة أمامه تبكي في بـراءة، أن تعمـل جاسوسـة مزدوجة؟!

وإذا كانت جاسوستهم فما هـي مصـلحتهم فـي أن يكشفوها له ومعركته معهم لم تبدأ بعد؟.. الأمر لا يمكـن أن

يكون بهذه البساطة.. لا بد أن هناك سرا مـا.. ينبغـي أن يعطي لنفسه فترة ليكشفه.. فقال:

- أنـتِ أجمـل عنـدما تضـحكين؟ اضـحكي.. فضحكت.. قال:

- عيبك أنك لم تفهميني بعد.. أنا لا أريـد أن أقتـل القناديلي بالضربة القاضية.. أريد أن أقتله خلجة خلجة!!

وقبل أن تقول: استقبلت نجاحي بفتور قال في نبـرة تصنعت الإعجاب:

- برافو دودي.. أخبريني كيف صورت هذا السـبق الصحفي المثير؟ هل شعر بك أنطوان؟

احكي لي..

شعرت بأن شيئا ما وراء حديثه الآن.. لقد حكت له كيف صورت هذه الصورة الفريدة فقالت له:

- عيبك يا أستاذي أنك تتصور أنك الذكي الوحيد!

خاف أن تكون قد أحست بما يدور في داخله وتطلب منه الإفصاح وهو لا يريد الكلام فناولها جريدة كانـت فـي متناول يده.. فقالت وهي تقرأ مقالة بتوقيعه:

- تهاجم الحكومة؟!

أطربته العبارة فضحك سعيدا فقال:

- أضرب الحكومة.. يخاف القناديلي.. ويحترمنـي الخان.. ويخشاني الأعداء.. ويعرف الكل أنني الطير الذي لا يؤكل لحمه.. لحمي مر يا دودي..

أبصر في عينيها نظرة إعجاب فقال في افتخار:

- أنا موهوب قذارة.. أعرف كيف أبيع موهبتي في سوق الحرية.. المعارضة في بعض الجرائد قد وصلت إلـى حد الوقاحة.. ولا أحد يغضب فلماذا لا أكون وقحا أنا أيضا؟ أستعير وقاحتهم وأنا أجيد لعبة الوقاحة هذه..

قالت في إعجاب:

- وتصبح بطلا..

-يصفق الناس لي.. لقد اسـتقبلني القنـاديلي هـذا الصباح وشرب معي القهوة وراح يحدثني بود وقال لي: هذه دارك.. لماذا لم تحضر نور القناديل معك؟!

وخرجت من الدار لأجد أهالي الخـان يسـتقبلونني بابتسامتهم.. اختفت نظرات الكراهية التي كانوا يحيطـونني بها.. أتعرفين لماذا تغيروا؟ لأنهم جبناء.. لا يقدرون علـى

الصراخ.. ويريدون من يصرخ بالنيابة عنهم.. وأنـا أجيـد الصراخ.

ضحكت وداد فقال لها:

- لا تضحكي.. فأنا سأصبح بطلهم.. يحلمون ببطل يحقق لهم ما لا يستطيعون.. وأنا هذا البطـل.. أملـك مـن الوقاحة ما يجعلني بطلا في عصر العولمة!

تنبهت إلى أن هناك بعض الكدمات في وجهه فقالت ساخرة:

- ضربوا البطل في عصر العولمة!

قال في ألم:

- وأنا في طريقي لبيتي في الهرم فوجئـت بعربـة تعترض طريقي.. وينزل منها بعض الرجال. وينهالون علي ضربا وقالوا لي وهم يذهبون: نريدك حيا حتى نجد من نقتله في المرة القادمة.. وضحك.

وقالت متأثرة:

- وتضحك؟!

قال وهو يتجنب النظر إليها:

- لأن الخيانة في بيتي!

أوشكت أن تقول له: تشك في حبوبتك..

ولكنها قالت:

- تشك فيمن؟

- لو عرفته لقتلته..

- هل تبلغ الشرطة؟

- سأبلغ الرأي العام وأعقد مؤتمرا صحفيا وأدعـو إليه وكالات الأنباء العالمية..

- وتصبح البطل الذي تريده..

قال بنبرة غاضبة:

- لست في حاجة إلى علقة لأصبح بطلها..

تنبه على أنها قد استدرجته ليحدثها عما حدث له في الطريق إلى بيته فقال:

- لا أريد لأحد الآن أن يعرف ما حدث لـي حتـى أعلنه في المؤتمر الصحفي..

وأبصر خادمه يدخل عليها بباقة ورد مكتوب عليها:

حمدا على السلامة.. يا بطل!!

(١٤)

ابتسم جليل أبو كريشة وهو يقول:

- شكرا على باقة الورد..

ضحك حمودة الجمل وهو يقول:

- رسالتنا هذه المرة باقة ورد!

يعتقد جليل أنهم الذين ضربوه وأرسلوه باقة ورد ليقولوا له إنهم وراء ما حدث له؛ ليرضخ لما يريدون منه فقال في تخابث:

- أفضل من الضرب!

قال الجمل بسرعة:

- نحن لا نضرب هذه الضربة الخائبة.. نحن نضرب الضربة القاتلة..

ضحك جليل قائلا:

- الضربة الثانية..

قال الجمل:

- على كل حال الضرب جعلك تكسب الرأي العام.. والمؤتمر الصحفي كان ضربة معلم.. جعل جماعتنا تطلب مني أن أتعجل الجلوس معك..

قال جليل وقد شعر بالأهمية:

-لا بد أنها الحكومة.. لقد كتبت مقالة نارية..

- الأعداء كثيرون يا باشا وأنا أحسدك على قـدرتك على اختيار الأعداء.. وهذا دليل علـى نجاحـك.. تنـاول سيجارا من العلبة الموضوعة أمامـه مـع أنـه لا يـدخن السيجار.

قال الجمل بعد أن أشعل له السـيجار فـي صـوت خفيض:

- نور القناديـل تريـد الشـيخ لتـدخل دار نظلـة مرزوق.. ونحن نريدك لتدخل دار نظلة مرزوق!

كما لو أنه تحول إلى حامٍ لدار نظلة فقال في صوت عال:

- دار نظلة..

- مطعم..

قال أبو كريشة في استنكار:

- مطعم!.. أهل الخان لن يسمحوا.. هذه الدار.. دار الأجداد.. لها منزلة خاصة في نفوسهم.. يثورون لو اقتـرب أحد منها..

- كل شيء يا باشا يقبل الشراء.. نحن في عصـر الأمريكان.. وأمريكا الآن هي العولمة..

قال ساخرا:

- الموضة الجديدة

-نحن نريد سوق القناديل.. وسندخله عن طريق دار نظلة مرزوق.

- عن طريق الساندويتش

- الناس فقراء.. أطعمهم يتبعوك!

- ليس الناس كلابا..

- ساندويتش العولمة يفعل السحر..

- يحضر الناس..

- عليك نور

وردد كلاما يحفظه:

- ويغير سلوك البشر.. وينشر ثقافة جديدة تتخطـى الحواجز القديمة، ويخلص الناس من الأفكار التي راجت أيام ناصر ويصبح خان القناديل أكثر تقبلا.. وأكثـر تسـامحا.. ومن هنا ننطلق إلى الهدف الرئيسي..

قال جليل:

قال الجمل باسما:

- بدأنا الفهم يا صاحبي.. سنجعل منه سوق القـرن القادم.. فنحن في عصر القرية الواحدة.. البيت الواحد هـو الذي يحكم..

- البيت الأبيض.. هذا جنون..

- ألم تسمع يا صاحبي عن استنساخ البشر؟!

- ولكن الناس في الخان يختلفون..

- وأين أنت؟ هذا دورك، تغسل أفكـارهم.. وأنـت خبير في غسل الأفكار.. والأموال.. يعرفون عنه كل شيء.. يصرخ في وجهه ويقول: أنا لا أهدد.. ولكنـه وجـد مـن الأفضل أن ينتهز الفرصة ويساوم ليحصل على مال أكثـر.. لذا عندما سمعه يقول: والآن.. لمن تنحاز.. لنور أم لنا؟

قال بسرعة:

- لمن يدفع أكثر.

قال له:

- إذن أنت مع العولمة..

- ولكن أنطوان جعل مهمتنا صعبة..

ضحك الجمل وهو يقول: الأمريكي!

قال جليل:

- توغل في الخان أكثر مما يجب.. تصور أنه قـد أقنع الناس بتحويل منتدى الخان إلى مقهى للإنترنت.. دخـل عن طريق المسجد..

- وسوزان..

- تمول المشروع

- مفيد..

شعر جليل بالاسترابة.. لا بد من أن الأمريكي على علاقة بهم فقال:

- صبي من الصبيان؟

قال حمودة الجمل ضاحكا:

- معلم..

- وضبش بائع الكتب أعلن الحـرب علـى مقهـى الإنترنت.. يخشى على تجارته.. يردد: الإنترنت رجس من عمل الشيطان!

ضحك الجمل.. قال جليل:

- ماذا يضحِك؟

- يعرف مصير كتبه..

- الحريق..
- وبعد ذلك يجيء ليأخذ نصيبه
- ولكنه يملأ الخان بنكاته والناس يضحكون
- إذن لن نضطر للحريق فتأثيره ينتهي عند ضحكهم
- ولكـن أهـالي الخـان يختلفـون.. لا يخـدعك ضحكهم.. النكات مقدمة للثورة.
- وأين المال يا صاحبي؟
- اسمح لي أن أقول لك يا صاحبي أنك واهم..
- حتى لو أغرقناك في بحر من المال..
- إذن يختلف الأمر
- اسمع.. كنا صديقين.. وفرقتنا النساء..
- والمال يجمعنا الآن
- ليس هذا بالضبط
- العولمة..

قال الجمل:

- الخيانة.. أنا أخون.. وأنت تخون..

قال جليل وهو يتصنع الغضب:

- لست خائنا..

- لا تزايد.. فنحن نعرف بعضنا البعض جيدا.. نبيع أمنا من أجل المال.. والمال سيجري من حولنـا ناطحـات سحاب.. والشاطر من يعب منه.. وأنا أعرف أنـك أشـطر مني في جمع المال..

قال جليل بشراهته:

- آخذ الأكثر لأني سأغسل عقل الخان..

- المال عندك غاية أما عندي فهو وسيلة لمتعة..

أطفأ الجمل السيجار وهو يقول:

- هذا الحديث يحتاج إلى سيجارة محشـوة بصـنف جيد..

وأخرج علبة سجائر وقدم له واحدة فقال:

- لم أعد أشربه..

- لم يعد يناسب الملك.. تشرب سيجارة العولمة

وضحك كما لو قال نكتة. ولم يضحك الجمل وقـال في لهجة جادة:

- أريد أن أنبهك.. أصحابنا لا يحبون الفهلوة..

استمر جليل في ضحكه قائلا:

- أليست العولمة هي فهلوة القرن القادم؟.. إذن أنـا عولمي

- وقبل أن نوقع الاتفاق أحب أن ترى هذه الغرفة..

ودفع بابا ليقول جليل بدهشته:

- ما كل هذه الأجهزة؟!

- غرفة العمليات..

قال ساخرا:

- الحادي والعشرون..

- تسمع دبة النملة في بيتك

تذكر الحديث الذي دار بينه وبين وداد وأسمعه جزءا منه فقال كما لو كان يحدث نفسه:

- إذن وداد بريئة..

قال الجمل باسما:

- نعم بريئة..

- الآن نوقع الاتفاق يا ملك..

وقال حمودة الجمل:

- وشرطي الأخير.. أن تقيم حفلة..

قال جليل:

- تليق بليلة الخيانة يا صاحب الجلالة..

قال الجمل:

- ليلة ينام فيها العقل..

(١٥)

استيقظ الخان على زلزال.. الشرطة قد هاجمت دار القناديلي في الفجر وقبضت على سوزان.. يتصـور أهـالي الخان أن يحدث أي شـيء إلا أن يقـبض علـى سـوزان ويشاهدوها وهي تركب عربة الشرطة.. لا يمكن أن ترتكب عصفورة الخان جريمة تستحق أن يقبض عليهـا بهـا فـي الفجر.. لا بد أن خطأ جسيما قد حدث.. وكثرت الأسئلة ولا أجوبة.. فانطلقت الشائعات في الخان..

قال البعض: إن ما حدث له علاقة بالأمريكي أنطوان الذي هبط على الخان فجأة؛ فقد اكتشفوا أنه جاسوس..

وآخرون قالوا: إنه لم يقبض عليه.. كل ما في الأمر أنهم قد استدعوه لسؤاله، ولم يستغرق سؤاله سـوى وقـت قصير، وخرج مكرما معززا فهو حماية أمريكية!!

وقالت وداد التي كانت تدخن الشيشة كعادتهـا فـي المنتدى وتسمع ما يردده أهل الخان لتنقله لجليل.. فالمنتـدى هو قلب الخان:

- أنطوان يعمل لحساب الموساد.. أرسلته إسـرائيل في مهمة معينة وبعد أن يتمها يرحل..

قال شادي معارضا:

- ولكنه أمريكي..

قال عاطف:

- وما الفرق يا عم شادي؟!

فقال ضبش منتهزا الفرصة.. يريد أن يحرضهم على المنتدى الذي تحول إلى مقهى للإنترنت:

- ألبسكم العمة!

قال العجمي مستنكرا:

- لم نلبس العمة.. نحن نعرف أن ظهوره في الخان كان شؤما برغم أنه كان يوزع الحلوى والهدايا على النـاس في ذهابه وإيابه..

قال عاطف بصوت خفيض:

- سمعت أن الشيخ قد وافق علـى بيـع دار نظلـة مرزوق ليتحول إلى مطعم يبيع الساندويتش، وأن وراء هـذا الأمريكي الذي يحفظ القرآن الكريم ويؤم الناس للصلاة فـي مسجد الخان.

قال ضبش ليشعل النار ويدفعهم إلى الثـورة علـى مقهى الإنترنت:

- هناك مؤامرة للاستيلاء على الخان وقد بدأت بهذا المنتدى الذي تجلسون فيه.

قال جليل أبو كريشة الذي دخل المنتدى فـي هـذه اللحظة وسمع ما قاله ضبش من أن هناك مـؤامرة.. فقـال ساخرا يريد أن يحول الكلام الجاد إلى نكتة:

- مذكور في كتب التاريخ يا جبرتي أن منتدى الخان لا يتحول إلى مقهى للإنترنت يواكب التقدم..

اغتاط ضبش فقال:

- الخيانة لا تتكلم..

شعر جليل بالخوف.. هل عرف ضبش بأمر خيانته للخان؟ لقد اتفق مع الجمل على أن تكون خيانته سرا.. ينبغي أن يتصرف بسرعة حتى لا يلفت نظر الجالسين حوله إلى ما قاله ضبش فضحك كأنه يسمع نكتة.. ولم ينتبـه الجالسـون حوله إلى ضحكته فقد كانوا مهمومين – في هذه اللحظـة- بأمر القبض على سوزان في تلك الساعة المتأخرة من الليـل والذي ينذر بخطر لا يعلم مداه إلا ا .. وخاصة أنهم سمعوا كلاما غريبا يتردد في الخان يقول: إنه لا فرق بـين خـان القناديلي ونيويورك.. فالعالم أصبح قريـة كونيـة!.. كيـف

يواجهون هذا الخطر؟ ولا بد أن يستدعوا المقاومة التي ورثوها عن أجدادهم وحفظت للخان وجوده ضد كل ألوان الغزو.. وينزل هذا الجالس في دوره العلوي ليحدثهم.. ويصارحهم بالحقيقة.. ويتوحدون معه.. وينتصرون.. لذا عندما أبصروا عم قناوي حارس الشيخ الخاص يخرج من بوابة دار نظلة مرزوق اندفعوا نحوه.. فأخبرهم بأن الشيخ قد اتصل ببعض معارفه الأكابر.. وأخبروه أن أمر القبض على سوزان لن يستغرق وقتا طويلا.. وستعود للخان.. فكل تهمتها سماع الموسيقى!!

قال عاطف سيد مذهولا:

- سماع الموسيقى تهمة.. أول مرة أسمع أن الموسيقى أصبحت جريمة!!

ابتلع عم قناوي عبارة أصلها موسيقى شيطانية.. فقال عاطف في انفعال:

- لا بد أن شيئا في هذا العالم قد جن!

شك عاطف فيما يقوله عم قناوي.. لا بد من أن يتأكد من الشيخ بنفسه فقال:

- أريد أن أقابل الشيخ..

وأيده شادي والعجمي.. فقال عم قناوي:

- الشيخ أصيب بصدمة ويلازم الفراش..

قال علي عويضة غاضبا:

- ليس من حق الشيخ أن ينام في فراشه في هذه الساعة.. الناس تريد أن تعرف الحقيقة..

وقال في تجاسر لقناوي:

- اذهب إلى سيدك.. وقل له إن أهالي الخان يريدون منك أن تنزل إليهم..

وجد جليل فرصته ليكسب شعبية في الخان فقال:

- أنا بالنيابة عن الشيخ!

قال عاطف سعيد مستفزا:

- تخبرنا بالحقيقة..

قال أبو كريشة في غرور:

- أنت تعرف اتصالاتي بالدوائر العليا

قال علي عويضة:

- سوزان متهمة بعبادة الشيطان!!

قال عاطف وقد فقد أعصابه:

- أي شيطان يا كاذب؟ لا يوجد شيطان سواك.

ولكمه بقبضته في وجهه لينهـال الواقفـون عليـه بالضرب حتى كادوا أن يفتكوا به لولا أن عم قناوي أنقذه من أيديهم وأدخله دار نظلة مرزوق.. فقد كـان الوحيـد الـذي يعرف أنه لا يكذب ويقول الحقيقة..

(١٦)

فوجئت سوزان بنسيم أبو كريشة يقف أمامهـا فـي السجن فقالت بدهشتها:

- نسيم؟!

لم يستطع أن يخفي إحساسه بالحب نحوهـا كعادتـه فقال بنبرة أفصحت عن حبه:

- سوزان..

تنبهت سوزان إلى أنه ليس وقت العواطف فقالت:

- ماذا أتى بك؟!

يريد أن يخبرها بأن والدها الدكتور قاسم قد حصـل على جائزة عالمية تقديرا لجهـوده فـي خدمـة الشـعوب ليفرحها.. ولكنه تذكر أن علاقتها به ليست على مـا يـرام فخاف أن يضايقها في هذه اللحظة فقال:

- أنسيتِ أنني المحامي الذي سيدافع عنك؟

قالت تداعبه:

- جنيتك أنستني!.

أوشك أن يقول لها: أصبحت جنيتي.. ولكنه صمت..

قالت له:

مازلت تذهب إلى البحر وتقابـل جنيتـك وتعطيـك عشب الحب؟!!

قال وهو يحتويها بنظرة إعجاب:

- أحسدك على قوة أعصابك..

قالت في ثقة:

- لم أفعل شيئا لتضطرب أعصابي.. لـم أخطـئ.. فلماذا لا أكون قوية؟ هل الموسـيقى جريمـة؟ لقـد قلـت للمحقق.. ليس عندي من دفاع سوى الموسـيقى.. اسـمعها وبعد ذلك اتهمني..

قال ليفرحها:

- سيفرجون عنك..
- أنا واثقة..
- لا بد من بعض الوقت..
- المهم جدو..
- يحبس نفسه في حجرته ولا يريد أن يقابل أحدا..

انفجرت بالبكاء وهي تقول:

- أعرف أنني روحه التي تعذبه.. أريد أن أموت.. لا.. لا أريد أن أموت حتى لا يموت جدو.. جدو رمز الحب

والعدل والتسامح في الخان.. وأنا أحب الخـان.. وأريـد أن يظل رمزه حيا لا يموت..

- وأهلي؟!

- ضربوا أخي جليل عندما قال لهـم إنـك متهمـة بعبادة الشيطان!!

ضحكت وهي تقول:

- يحبونني..

وكأنها ضحكت ضـحكة البحـر عنـدما يصـفو.. سيأخذها إلى البحر.. لتبارك جنيته حبهما.. فقـال يسـتعجل هذه اللحظة:

- لن تبقي كثيرا هنا..

فوجئ بها تقول:

- أريد أن أبقى.. أشعر بأنني حرة أكثر من أي وقت مضى!!

نظر إليها. قال بنظرته المذهولة: السجن حرية؟!

قالت وقد فهمت نظرته:

- السجن الحقيقي عندما تشعر بـأن روحـك غيـر طليقة.. أنا أشعر بأن روحي الآن طليقة.. لا شيء من أشياء الحياة الصغيرة تعوقها عن الانطلاق..

فقال:

- صرت شاعرة!

قالت تشاغبه:

- أطعمتني جنيتك من عشب الحب

شعر بأن بحر حبها سيجرفه.. وأنه أضعف مـن أن يقاوم موجه فقال يريد الهرب:

- سأذهب لأطمئن جدو..

قالت سوزان:

- يبدو أنه كان علي أن أدخـل الزنزانـة لأعـرف الحب..

أوشك أن يقولها: والأمريكي؟!.. ولكنه قال:

- هل عرفتِ الحب؟!

قالت:

-عرفت أن ا هو الحب..

تذكر أنه قال لها مرة: ا هو الحب.. فهم من ذكرها هذه العبارة أنها تقول له: أحبك.. يريد أن يطير.. يحط على بحره.. يقول لجنيته: الحب لم يعد مستحيلا.. يشغلها عن طيران طائر حبه.. قال لها: الدكتور قاسم نال جائزة الشعوب العالمية.. فقالت بفرحتها: أبي.. وصل من الخارج قال: لم يصل. قالت: أريد أن أطير إليه لأحضنه..

شعر نسيم بأنه قد ذاب في حضنها.. واكتشف وهو يخرج من بوابة السجن أنه لم يعد موجودا.. التقى بالعشق!

(١٧)

شعر أهالي الخان بأن شمسهم قد أشرقت في هذا الصباح.. فمنذ أخذوا سوزان.. أحسوا بأن شمسهم قد غابت عنهم برغم أنها كانت تشرق كعادتها كل صباح، لذا عندما رأى عجمي بائع الزهور سوزان تنزل من عربة نور القناديل راح ينثر زهوره تحت قدميها ويحيط عنقها بعقود الياسمين لتزغرد وداد التي تصادف وجودها في الخان في الصباح الباكر.. لتفتح نوافذ الخان وتنطلق الزغاريد ويمسك شادي.. مزماره ويغني أغنية "رحنا وجينا بالسلامة" بصوته الرخيم ليغنيها أهالي الخان الذين تجمعوا حول ابنتهم سوزان يغمرونها بحبهم.. ويصل صوت الفرح إلى الشيخ الجالس في حجرته في الدور العلوي فيعرف أن روحه قد عادت إليه.. فهذا الفرح لا يمكن أن يكون إلا لسوزان.. فيهب من سريره واقفا وينزل مهرولا ليأخذ حفيدته في حضنه لتسيل دموعه وتعانق دموعها عيون الواقفين حولهما.. لقد نسوا أنهم غاضبون من شيخهم لأنه قد عزل نفسه في الأيام الأخيرة.. وتحول الخان في لحظة إلى معزوفة حب للشيخ وحفيدته..

وتنبهت سوزان إلى أن نور القناديل تقف وحيدة.. لا يرحب بها أحد فأسرعت إليهـا وخلعـت عقـود الياسـمين ووضعتها حول عنقها وهي تقول لأهالي الخان:

- نور التي أخرجتني من السجن..

لتصبح نور ابنة عم قنديل – في لحظة- قطرة فـي بحر حبهم.. تحضنها النساء.. ويتغنى الرجال بأصالتها فهي ابنة عم قنديل الذي رفـض أن يسـتجيب لرجـل الثـورة ويتركهم.. لتغمر فيضان المشاعر هذه القناديلي.. فيأخـذها إلى دوره العلوي ليحتفي بها..

وتشعر نور وهي تجلس في حجرته الخاصة التي لا يدخلها أحد بأن خطتها قد نجحت.. لقد عرفت أن جليل قـد خانها ويريد منعها من العودة إلـى الخـان حتـى تسـتولي عصابته على دار نظلـة مـرزوق.. فقـررت أن تتحـرك بسرعة.. تلعب بورقة سوزان.. تزورها في السجن، ولكنهـا عرفت من بعض معارفها في دوائـر الشـرطة أن النيابـة ستفرج عنها ففضلت أن تذهب إليها فـي لحظـة الإفـراج وتصحبها في عربتها إلى الخـان فتكسـب أهـالي الخـان والقناديلي بضربة واحدة.

احتوت أمين بنظرة انتصارها.. تلاعبه كرجل حتى يصبح خاتما في أصبعها.. تؤمن من خلال تجاربها بأن نقطة ضعف الرجل الشرقي.. المرأة.. فمدت يدها تريد أن تمسك يده وتقول له بأنوثتها: يا رجل يا عجوز تحرمني مـن هـذا الحب هذه الفترة الطويلة..

تصور الشيخ أنها تريد أن تقبل يده فجذب يده منهـا بسرعة وهو يقول:

- استغفر ا يا ابنتي..

غيرت خطتها وقالت في نبرة تمثيلية:

- أخطأت يا أبتي.. فاغفر لي!!

فقال الشيخ بطيبته:

- أنا الذي أخطأت في حقك يا نور.. فاغفري لي.. لا أعرف ماذا أقدم لك.. اطلبي..

قالت وهي تتصنع الضعف:

- لا أريد سوى حبك..

قالت سوزان التي دخلت عليهما وسمعت مـا قالتـه نور:

- حب جدو بالدنيا..

أشار القناديلي إلى حفيدته بأن تتركهما فخرجت وهي تقول لنور:

- أهالي الخان يذبحون الذبائح.. ويقيمـون وليمـة لك.. سأشرف بنفسي عليها..

احتوت الشيخ أمين.. نور بنظرته.. شعر بـالحزن.. ليست نور الجميلة التي كان يعرفها.. هزمتها الغربة.. تذكر ما قاله جليل من أنها تريد أن تموت في الخان.. فوضع على وجهه التأثر وهو يقول:

- قلت لجليل.. أريد أن أرى بنتنا نور.. فلماذا لـم يبلغك؟

جاءتها الفرصة فقالت:

- المافيا..
- أي مافيا؟!
- مافيا جليل..
- جليل؟!
- يريد أن يبعدني عـن الخـان ليسـتولي علـى دار نظلة..

قال بذهوله:

- دار نظلة مرزوق!!
- يريدون تحويلها إلى مطعم!..
- طار صوابه فقال:
- على جثتي
شعرت بأنها قد سحقت جليل فقالت فرحة:
- رجل ولا كل الرجال.. أبي كـان دائمـا يلقبـك بالفارس..
ذكرته بأيام الشباب عندما كان يحارب فتوات سـوق القناديل ليحمي الخان ودار نظلة مرزوق مـن غـاراتهم.. فقال:
- كان هذا في أيام الشباب..
شعرت بالخوف من نبرة الضعف في صوته فقالت:
- مازلت شابا يا رجل الرجال..
- ليت الشباب يعود يا نور
- ودار نظلة مرزوق التاريخ..
وقال بعشقه لتاريخ الدار:
- التاريخ ليس ملكا لأحد..
- ملك الناس.. وأنا واحدة من الناس

قال وقد أسعده أن يراها مازالت صلبة:

- سيدة الناس..

- ومن أجل هذا سأدافع عن الدار..

- فقال وقد تملكه الحماس:

- وأنا معك..

- أريد وعدا يا سيد الفرسان..

قال وقد شعر بأنه مازال فارسا:

- الناس اختاروني لأكون أمينا على تراثهم.. فكيف أخونهم؟

قالت، وكأنها تحدث نفسها:

- ولكني خائفة من ألاعيب الشيطان!..

- قال باسما:

- لا تخافي.. الناس في الخان أقوى من كل ألاعيبه.. يبدون أحيانا أنهم غير مبالين.. ولكن في الوقت المناسب يبهرونك بوعيهم..

قالت لتطمئن نفسها:

- أهلي وأنا أعرفهم.. عندما أبصرتهم هذا الصباح شعرت بأن الأيام قد زادتهم صلابة..

وأوشكت أن تقول له: ولكنهم جعلوا من جليل بطـلا بعد أن هاجم الحكومة.. ولكن سوزان دخلت عليهما وقالت:

- الناس يريدون نور ليحتفلوا بها..

قالت نور وهي تمسك الشيخ من يده بجسارتها:

- لي رجاء يا سيد الرجال..

قال الشيخ معجبا بها:

- مري يا سيدة الناس..

- أريد أن يشاركني أبي احتفالنا..

ارتج على الشيخ.. أصبح يكره أباها بعد أن أخبروه بأنه يأوي الرجل المخرف الذي يحرض أهل الخـان عليـه ويقول أن توقيعه باطل!!.. فوضح على وجهه الرغبـة فـي عدم دعوته للوليمة.. فقالت تستعطفه:

- أعرف كلماته الجارحة.. ولكنه أبي.. وأنا ابنته..

ودمعت عيناها وهي تقول:

- أشعر بتأنيب الضمير.. تركته يعـاني شـيخوخته وحيدا.. أريد أن أقبل يده أمام أهالي الخان حتى يسامحني..

أوشك أن يقول لها أنا الخان يا نور وقـد سـامحتك ولكنه قال:

- لا أستطيع أن أرفض طلبا لسيدة الناس

قالت سوزان بسرعة:

- عمي قنديل يحبني.. ولا يـرفض لـي طلبـا.. سأذهب إليه وأدعوه.. ليشاركنا فرحتنا.

قالت نور.. تريد أن تكسب رضاء الشيخ:

- لا تتركينه حتى يجيء..

وجد الشيخ نفسه يقول:

- بارك ا فيكِ يا نور الخان..

(١٨)

لم ينم جليل. أخبرته وداد بما حدث في الخـان فـي الصباح بعد الإفراج عن سوزان.. وبما دار بين الشيخ ونور القناديل من حديث.. فشعر بالخطر.. لن يصبح مليـونيرا.. لقد قرر الاستيلاء على مشروع دار نظلة مرزوق بعد تحويله إلى مطعم.. لا بد من المواجهة السريعة.. يذهب إلى الشـيخ ويقلب المائدة على رأس ابنة عم قنديل.. حمل باقة ورد فـي صدره وجلس ينتظر الإذن من عم قنـاوي للـدخول علـى الشيخ.. تعود الدخول عليه بدون استئذان.. برر لنفسه هـذا الانتظار بأنه قد جاء في وقت غير مناسب.. فـي الصـباح الباكر.. استحضر جرأته.. الأمر لا يحتمل الهزيمة.. النصر أم الموت؟! وألاعيب الشيطان في داخله حاضرة.. يشـرب شاي عم قناوي ويشنق نور على باب القنـاديلي.. توقـع أن يدخل عن قناوي ويدعوه لمقابلة الشيخ في الحجرة التي تعود أن يستقبله فيها ولكنه فوجئ بالشيخ أمين يدخل عليه ويقـول له في غضب- تبيع دار نظلة يا مرزوق؟!

وضح على وجهه المباغتة. فقال القناديلي:

- ألست أنت الذي تقول لي أن اسم جدك مرزوق؟!

لم يجد جليل ما يفعله سوى أن يبكي. رمقـه أمـين بدهشته.. فقال جليل:

- جليل يبيع دار جده التي كافح من أجل تجديدها!

ولم يدع الشيخ يقول أن نور قد أخبرته فقال:

- أعرف أنها نور!

وضحك.. قال أمين مستغربا:

- تبكي وتضحك؟!

- مافيا نور هي التي تريد أن تبيع دار جدي..

قال القناديلي بانفعالة:

- كاذب..

- وأمارة صدقي أنها أخبرتهم بما دار بينك وبينهـا من حديث.

- أنا لا أحب الوشاية..

- تكلم..

- سأتكلم.. لقد قلت لها على جثتي عندما قالت لـك إن مافيا جليل تريد أن تستولي على الدر.

ارتج على الشيخ. انتهز جليل الفرصة وقال: تريد أن تسمع أكثر.. ولم يكن يعرف بأكثر من ذلك قال الشيخ فـي عصبية:

- لا أريد أن أسمع.
- سيدة الناس زرعت جاسوسا في دارك..

ووقف الشيخ وهو في قمة غضبه قائلا:

- الزيارة انتهت..

ارتبك جليل للحظة.. ولكن ما لبث أن تجاوز لحظـة ارتباكه.. لقد انتهى من نور ولم يبق سوى قناوي الذي تعتمد عليه في معرفة ما يدور في دار الشيخ فقال:

- اقتلني..
- الزيارة انتهت يا جليل..
- أنا أحبك وأخـاف عليـك ولـن أخـرج دون أن أخبرك..

قال الشيخ وقد نفد صبره:

- بماذا؟
- الخائن
- من؟

- قناوي..

- خادمي الخاص!!

وسرح الشيخ قليلا بعد أن جلس.. تذكر البرنسيسـة عندما قالت له في لحظة صفاء أنها تدفع لقناوي مرتبا شهريا ليخبرها بما يدور في حجرة نومك.. فهز رأسه وقـال فـي أسى:

- أعرف أن قناوي..

وبدلا أن يقول: يبيع أخباري.. قال: يبيعني.. نقطـة ضعفه المال..

قال جليل بسرعة:

- يبني دارا على قطعة الأرض التي اشتراها لابنته عالمة الفضاء!!

ووقف جليل وقال:

- سأخرج.. ولكن قبل الخـروج أريـد أن أسـالك سؤالا: لماذا تريد نور أن تشتري بعد أن باعت؟

- اسأل نفسك.. أنت الذي جئت لي وطلبت مني أن استقبلها وأغفر لها..

قال جليل في مسكنه:

- علمتني الرجولة يا سيدي.. والرجولة اعتـذار إذا كان لا بد من الاعتذار.. لقد أخطأت..

- أخطأت؟

- كشفت المؤامرة..

- أية مؤامرة؟

- تلعب مع الكبار..

قال الشيخ بغروره:

- لا كبير غيري..

قال جليل باسما:

- الشركات متعددة الجنسيات يا جدو

ودخل قناوي حاملا صـينية الشـاي فقـال الشـيخ بغضبه:

- كم دفعت لك نور؟

- أعطتني حلاوة عودة سوزان..

- تبيعني؟!

- أنا قناوي..

- فقد الشيخ أعصابه.. صرخ:

- جاسوس

- أنا؟!

- كلكم جواسيس..

-اقطع رقبتي.. ولا شك في خادمك المخلص الـذي أفنى عمره في خدمة سيده.

- لم تعد خادمي.. اترك دار نظلة الآن..

سقطت صينية الشاي من يديه.. ولم يعرف الرجـل العجوز كيف خرج من الحجرة.. كل ما يذكره أن سـوزان أخذته على صدرها وحمته من السقوط، وبكى على كتفهـا، وفهمت من بكاء العجوز أن جليل وقد وشـى بـه فتملكهـا الغضب واندفعت داخله عليهما.. واستفزتها ابتسـامة جليـل وهو يقول: حمدا على السلامة يا عروستنا..

قالت وقد اشتعلت بالغضب:

- أشعلت النار..

- أنا أطفئ النار..

وقال بنبرة ساخرة:

-صديقتك نور هي التي أشعلت النار.. تتجسس على الشيخ..

فقدت أعصابها وقالت:

- اخرس.. نور سيدتك

نظر جليل إلى الشيخ وقال في مسكنة:

- أرأيت يا جدو؟ جليل يهان أمامك

قالت سوزان وقد ازدادت انفعالا:

- لن ينقذك من يدي..
- الرحمة يا عصفورة الخان
- قالت سوزان وهي في قمة غضبها:
- أخرج يا أبا كرش

تضايق الجد. لا يصح أن تهين ضيفه حتى لو كـان غاضبا منه.. ولكنه كتم ضيقه..

أحس جليل بضيق جدها فانتهز الفرصة وقال وهـو يكاد يبكي:

- أنا أبو كرش؟.. ا يسامحك..
- وحيوان

وخرج جليل ودمعة مصنوعة تفر من عينيه وقالـت له سوزان بعنفها:

- خذ وردك معك..

وألقت بالورد خلفه. شعرت سوزان بأن جـدها قـد تضايق منها. أرادت أن تبرر له انفلات أعصابها ولكنه لـم

يتح لها فرصة الحديث فقد أعطاها ظهره وخرج من الحجرة ولم تحتمل سوزان هذا فانفجرت بالبكاء..

خرج جليل من دار القناديلي وهو يختـال زهـوا... نجح شيطانه في أن يلعب لعبته.. أحـدث زلـزالا فـي دار الشيخ.. ينبغي أن يحتفل بانتصاره.. نادى على عزوز صبي مقهي الإنترنت أكثر من مرة.. كان مشغولا ببعض الشـبان الذين جاءوا من خان مجاور واسـتدعوا بعـض المشـاهد الإباحية في الإنترنت وضـبطهم فـأغلق الجهـاز وكـانوا يحتجون فقال له:

- صرت رقيبا!

قال عزوز:

- تجاوزوا الخط الأحمر!
- دعهم يرون ما يرونه في الخـارج حتـى يرفعـوا الحجاب عن عيونهم ويستنيروا ويعرفوا الدنيا..
- خالفوا التعليمات يا سي جليل.. ولا نريد لضبش أن يستغل الفرصة ويهاجمنا...
- تخافون من أعرج.. آه يا بلد
- لسانه حاد.. والتعليمات..

- دعني من هذه التعليمات الآن يا حضـرة الرقيـب واسمع تعليماتي.. اليوم كل الطلبات بالمجان وتعلن هذا في مكان ظاهر..

قال صبي المقهي مندهشا:

- ستدفع غلة اليوم كلها.. ما المناسبة؟ قتلت قتيلا..
- عودة سوزان يا حمار.. الخان أقام احتفاله وجليـل يقيم احتفاله..

وجلس يدخن نرجيلته وتعمد أن تكون جلسـته فـي مواجهة نافذة صفاء.. اشتاق لرؤيتها.. اكتشف أنه لم يحـب سواها.. الوحيدة الساكنة في نفسه تؤنس وحدته.. يريـد أن تفتح نافذتها وتراه وهو في لحظة انتصاره.. لقد صرع الكل بضربة واحدة.. يتوقع أن ينزل عم قناوي مطرودا مـن دار نظلة مرزوق ويحكي لأهل الخان أن الشيخ قد غـدر بـأعز إنسان لديه.. طرد الرجل الذي أفنى عمره في خدمته.. آخر خدمة الغز علقة، كما يقول المثـل الشـعبي.. ولا يصـدق الخان.. ويتدخل ليشعل النار كلما خمدت.. ويعرض عليه أن يقيم في شقته حتى تحضر ابنته الدكتورة نفيسة من مهمتهـا العلمية في الإسكندرية.. ولكن عم قناوي لا ينـزل.. فهـل

نجحت سوزان في جعل الشيخ يسامحه؟.. ولكن علاقة الشيخ بسوزان قد أصابها شرخ.. أبصره في وجهه وهي تتجـاوز حدودها.. لن يضيع وقته الآن ويصعد إلى حمودة الجمل في بيته ويحدثه عن النصر الذي حققه ليخبر جماعته بأنه قد بدأ اللعب.. ويرى صفاء.. سأل عزوز: الجمل في البيت؟

ولم ينتظر إجابته وقام وصعد إلى شقة حمودة. طرق الباب. دق قلبه مع دقات يده. فتحت له صفاء.. وجد نفسـه عاجزا عن الكلام.. أغلقت الباب في عنف وهي تقول: غير موجود.. نزل سعيدا.. لقد قالت له بعنفها أنها مازالت تحبه. أبصر عم قناوي يحكي لأهالي الخان وهم يتجمعون حوله.. فكر في أن يتركه ويذهب إلى الجمل في مكانـه السـري.. ولكنه وجد من الأفضل أن يبقى في الخـان ويراقـب سـير الأمور فهو يخشى أن يقول لهم أنه السبب في طرده؛ وتنزل سوزان وتقلب الخان على رأسه، وهو الذي يريد أن يكسـبه لصفه ويحارب به معركته ليستولي على دار نظلة مرزوق.. فانتهز فرصة التعاطف مع عم قناوي وهو ينظر إلى نافـذة القناديلي وهو يقول: ا على الظالم.. ليقول: سأنتقم له مـن الظالم..

وأشار إلى الذين يلتفون حول قناوي وهو يقول:

- إن ظلمك هو ظلم أهالي الخان.. وأنا أملك قلمـا وأستطيع أن أقلب هذه الدار على رأسه..

ونظر في الوجوه التي لا تصدق ما تسـمع.. فهـم يسمعون كلاما فيه تجاسر على شيخهم الذي أحبوه لعدله فقال ليستفزهم ضده:

- لقد أحببناه لأنه اشتهر بالعـدل.. ولكنـه عنـدما يصغي لوشاية نور القناديل.. ويطرد رجلا أفنى عمره فـي خدمته ويطلب منه أن يرحل..

قاطعه عاطف سعيد قائلا:

- لن يرحل..

قال علي عويضة:

- سيقيم في بيتي..

قال شادي

- في بيتي أنا.. قناوي من قريتي

خشي جليل أن يكسبوا منه الجولة فأسرع يقول:

- لا يستطيع أحد أن يطرد عم قناوي.. دار نظلـة ليست ملكا لأحد..

وقال بصوت حرص على أن يكون خفيضا:

- وإذا كان لا بد من أن يرحل أحد فليرحل الظالم..

وشعر جليل بعد أن قال هذه العبارة بالخوف بـرغم أنه قالها بصوت خفيض فقد خشي أن يتغير مزاج الخان في لحظة ويتنبه البعض إلى أنه قد أهان كبيرهم.. فينهالون عليه ضربا فتتأثر أسهمه لدى الجمل ورجالـه فقـرر أن يمشـي والموقف مازال ساخنا.. يذهب إلى المكان الـذي تعـود أن يلتقي فيه بوداد بعيدا عن العيون..

وعندما أبصرته قادما عليها قالت في إعجاب:

- شيطان..

قهقه، فهم أنها قد عرفت ما فعله في الخـان فقـال سعيدا:

- التلميذة تتجسس على أستاذها؟!

- ليطمئن قلبها..

لقد أغدقت على صبي من صـبيان المنتـدى غيـر عزوز وجعلته ينقل إليها ما يدور في الخان بالتليفون لحظـة حدوثه فقالت:

- تلميذتك النجيبة تعرف ما يدور في الخـان وهـي جالسة تنتظرك..

يريد أن يتلذذ بسماع أخبار انتصاره في الخان فقال:

- اخبريني بآخر أخباري..

وشرب شيئا من كأسه..

قالت لترضي غروره:

- كنت بطلا.. وأنت تقول لا يستطيع أحد أن يطرد عم قناوي.. دار نظلة ليست ملكا لأحد.. وإذا كان لا بد مـن أن يرحل أحد فليرحل الظالم..

قال بغروره:

- تحفظين كلام البطل..

تضايقت من غروره. تذكرت أنه قد صـعد ليـرى صفاء فقالت:

- صعدت لصفاء..

- كيف عرفتِ؟

وجدت نفسها تقول على رغم منها:

- أنصحك بالابتعاد عنها..

صفعها وهو يقول:

- لا تذكري اسمها!! برغم أنها لم تذكر اسمها!..

لن تنهزم. لن تأخذه صفاء منها فابتسـمت ابتسـامة باردة..

استفزته ابتسامتها الباردة فقال:

- وأقطع رقبة من يذكرها بسوء.. إني أحبها

وكما لو أنها قالت: ولكنها لا تحبك فقال صارخا:

-كذب.. مازالت تحبني.. ماذا يعني إغـلاق البـاب بعنف في وجهي سوى الحب؟!

تنبه - بعد قليل- أنه قد أخطأ عندما صفعها.. يخشى أن يفقدها وهي عينه في الخان فقال:

- دودي سامحيني..

قالت بنبرة جادة:

- لا قلب في العمل..

قال وهو يبتلع جرعة من خمره:

- برافو تلميذتي النجيبـة.. مازالـت تـذكر درس أستاذها..

قالت لتذكره بأنه لن يستطيع أن يستغني عنها حتـى لو عادت له صفاء:

- نسيت أن أقول لك إن عم قناوي دخل في العميـق، بدأ يذيع أسرار القناديلي، قال إنه كان يغلق البـاب عليه وهو يجلس مع البرنسيسة..

قام بسرعة وقبلها وهو يقول:

- تستحقين قبلة ملكية..

وقال وقد تصور أنه يقبل صفاء:

- وماذا أيضا يا دودي الجميلة؟

قالت وقد شعرت بأنه لن يستغني عنها:

- خاصم الشيخ سوزان وذهبت تشكوه البرنسيسة..

قال وهو يتمايل والكأس بيده:

- جبهة ضد الشيخ.. وأهالي الخـان فـي جبهتـي الآن.. يشربون مشروباتهم على حسابي.. وصب شيئا مـن زجاجة الخمر وهو يقول:

- لا بد من مكافأة الملعون في داخلي بالمزيـد مـن خمرنا المعتقة..

وشرب جرعة كبيرة.. وراح يغني: أنا الشيطان..

أوشكت أن تقول له إن أهل الخان قـد رفضـوا أن يشربوا مشروباتهم على حسابه وقالوا لعزوز: لا نقبل دعوة

من يسب شيخنا.. ولكنها أشفقت عليه.. لا تريـد أن تعكـر مزاجه فقد شعرت بأنها تحبه في هذه اللحظة أكثر مـن أي وقت مضى.. فابتعلت عبارتها.. وتركت يدها له ليقبلها وهو يقول: ماذا تريدين؟ المال.. سيجري تحت أقـدامنا نهـرا.. وستشربين منه حتى تملين!! كادت أن تقول له: أريدك أنت.. ولكنها قالت: لا أريد مالا!

عب جرعة من خمره المعتقة وهو يقول:

- أنت ملاك..

قالت تداعبه:

- وأنت شيطان

- قال لها بحبه الذي تفجر في هذه اللحظة:

- والشيطان لا يستغني عن الملاك..

ودارت الخمر برأسه.. فأدار الموسيقى وأمسكها من يدها وراح يرقص وهو يقول:

- أنا الشيطان الملعون في كل مكان

وأنت الملاك المحبوب في كل مكان

وجدت نفسها تقول:

- ولكن الشيطان هزم الكل

وفجأة قال ودموع الخمر تسيل من عينيه:

- أنت حبي الدائم.. لأنك دودي.. عيني التـي أرى بها.. وقلبي الذي يدق.. وروحي التي تقول إنني انتصرت.. وبغيرك أموت.

سالت دمعة من عينيها فمسحها بأصابعه وهو يقول:

- الملاك لا يبكي يا ملاكي..

(٢٠)

دخلت سوزان على نسيم فـي مكتبـه.. عصـفورة تزقزق.. لقد صدر – في الصباح – حكم البراءة..

قالت وهي تطير من الفرح:

- لا تقف يا حضرة الأستاذ.. أنت القاضـي الآن.. وأنا المحامي..

وراحت تقلده وهو يترافع في المحكمة وتقول:

- حضرة القاضي.. القضية المعروضة عليك غيـر مسبوقة.. قضية متهمة فيها الموسيقى.. أنبـل مـا أبدعـه الإنسان ليواجه بها ظلام الغابة الذي مازال بيننا ولم يرحل..

ولوحت بيدها كما كان يلوح وهي تقول:

- البراءة هي بـراءة للتـاريخ حتـى لا يقـال إن المصريين- في يوم غاب فيه العقل- قد أدانوا أسـمى مـا أبدعه الإنسان..

واقتربت منه بدلالها لتقول:

- ما رأيك يا حضرة المحامي.. أصلح لأن أكـون تلميذتك؟

ووضعت يدها على فمه وهي تقول:

قرأت مرة أن الحب ألا نتكلم.. فلا تتكلم..

فابتسم..

– أتعرف أنني لم أكن أصدق أنك أنت الذي تتكلم في المحكمة..

قال لها: أتكلم..

فقالت له: تكلم..

قال نسيم:

- كنت أدافع عن قضية عمري..

فقال بحبها الذي تفجر في قاعة المحكمة وهي تسمعه يدافع عنها:

- أنا قضية عمرك؟!

- كنت أحلم بالمحاماة.. أرتدي الروب وأقف في قاعة المحكمة وأدافع عن المظلومين.. ولكن هذا الحلم ضاع في دروب الخان.. إلى أن جاءت قضيتك.

وقال بحماسة:

- جعلت الحلم يستيقظ في داخلي.. العدل جعل الحلم يولد من جديد..

قالت بشقاوتها:

- العدل أم الحب؟!

وانفجرت بالبكاء كما لو كانت صبية هاجمها الحـب وهي وحيدة في الطريق.. فنظر إليها في دهشة.. لم تبكي في السجن وتبكين في مكتبي!!

فقالت وهي تقاوم دموعها:

- تذكرت جدو..

أوشك أن يقول: ولكن علاقتكما عادت بعد أن أفسدها جليل.. ولكنها قالت:

– احتضني في المحكمة بعد أن سمع حكم البراءة.

قالت حزينة:

– أنا خائفة عليه من أميرة..

قال باسما:

– البرنسيسة.. حبه القديم

– تلاوعه.. والشائعات تملأ الخان.. وتـؤثر علـى مكانته..

– وجدك عنيد..

– لم أستطع أن أجعله يسـامح قنـاوي.. وجعلنـي أقاطعه.. وعم قناوي هو أبي الحقيقي الذي رباني.

– ولكن قناوي حرق مراكبه كما يقولون.

– معذور.. لقد وجد نفسه في العراء.. ولكني حائرة كيف يبيع نفسه لجليل الذي جعل جدي يطرده؟

قال نسيم:

– ليس جليل وحده.. إنهم كثيرون.. الكل يطمع في دار نظلة مرزوق.. يريدون تحطيم الشيخ رمز الخان..

خشيت أن يذكر نور القناديل بسوء فقالت:

– ولكن لا يوجد مثل جليل..

وأوشكت أن تقول له: لا أعرف كيف يكون هذا الشرير أخاك؟!. ولكنها سمعته يقول:

– تصوري أنه طلب مني ألا أترافع في قضيتك.

فقالت:

– يريد أن يتخلص مني لأني أعرفه على حقيقته..

– ولم يفقد الأمل حتى آخر لحظة.. أرسل لي الدكتورة نفيسة لتطلب مني ألا أذهب في هذا الصباح إلى المحكمة..

– صديقتي.. لا أعرف لماذا تحقـد علـي؟.. إنـي أعتبرها أكثر من أخت.. تأكل من طبقي وتلبس من ملابسي وتصرف من مالي..

– تشعر بالدونية..

– كيف تصادقها؟

– كما تصادقين..

قالت:

– تقصد الأمريكي.. لم يعد صديقي..

فقال:

- ونفيسة لم تعد صديقتي

– بصرة..

وضحكت سوزان ليضحك نسيم.. قالت سوزان فـي ألم وهي تتذكر تجربتها في الزنزانة:

– لقد اكتشفته في السجن..

قال بسرعة:

– لا تذكري السجن.. لا أتصور أن طـائر الحـب يحبس في زنزانة..

قالت بحزنها الدفين:

– أبي لم يعلمني.. وجدي دللني.. ويجيء السـجن.. لتتفتح عيناي.. وأرى الأشياء على حقيقتها.. لقـد انبهـرت بالأمريكي أنطوان من خلال الإنترنت وهو يقود مظاهرة في أمريكا من أجل وقف تنفيذ حكم بالإعدام في كلب.. وانبهرت أكثر عندما جاء للخان وسـمعته يتحـدث اللغـة العربيـة الفصحي، ويحفظ بعض آيات من القرآن الكريم، ويؤم الناس في مسجد الخان للصلاة.. ويشجعني على تحويـل منتـدى الخان إلى مقهى للإنترنت.. ولكني كنت أشعر في داخلي بأن هناك شيئا يخفيه عنى.. كنت أحـس بـه دون أن أمسـكه بأصابعي.. وفي الزنزانة.. عندما خلوت إلى نفسي وجدتـه مجسما أمام عيني.. أبصرت الحقيقة، اكتشفت أن كـل هـذا كان غطاء.

– ليسرق تاريخنا!!

– وخرجت من السجن لأجده.

قال مندهشا:

– رحل؟!

– رحل عن نفسي..

وقالت ضاحكة:

– وأنت؟!

قال يبادلها الضحك:

– تقصدين الجنية..

قالت:

– رحلت هي الأخرى؟!

– لقد ذهبت إلى المحكمة بدلا من أن أذهـب إلـى شاطئ البحر.. أبصرت في عينيـه حزنـا فقالـت لتجعلـه يشاركها سعادتها:

– هل أنت حزين لأنك تفارق جنيتك؟!

وتوقعت أن يقول لها: أنت جنيتي.. ولكنها وجدتـه يقول:

– الوطن يا سوزان..

مس جرحا في داخلها وهو يقول:

– كان همنا في بداية قرننـا العشـرين.. مشـروعنا القومي.. أن ترحل البرابرة.. والآن والقرن يرحـل صـار همنا مشروعنا الخاص.. أنا وبعد الطوفان.. ليدخل البرابرة الجدد رافعين أعلامهم باسم العولمة ونطبل ونزمر لهم!!

وأمسك يدها وقال:

– أتعرفين لماذا دافعت عنك؟ لأني أرى فيك عروس بحر النيل التي لا تخاف أمنا الغولة وهي جالسة على شاطئ النيل تغزل ثوب الحب.. تغني: البحر بيضحك ليه وأنا نازله أدلع أملا القال..

وتوقع منها أن تغني أغنيتها التي تحبها ولكنه وجدها صامتة.. كانت تقاوم دموع تأثرها بحديثه ليقول لها فجأة:

– الخان أصبح قبيحا يا سوزان..

لتقول له بحبها له:

– ولكنك زرعته زهورا..

– ليس مهما أن نزرعه زهورا.. المهم الناس..

وقالت وهي تتأمله:

– أن يصبح الواحد منهم زهرة تتفتح لنور العصر..

وقبل يدها وهو يقول:

– مثلك يا حبيبتي

تسمعه لأول مرة يقول لها يا حبيبتي.. فشعرت بأنها قوية فهبت واقفة وهي تقول:

– أتعرف لماذا لا أخاف.. لأن جدي قد غرس فـي داخلي منذ صغري.. الحرية.. فأعطاني المناعة..

قال نسيم وكأنه يحلم:

– قرأت عن هايدبارك.. حديقة الحوار في لنـدن.. فلماذا لا نقيم حديقة للحرية في خان القناديل ليتعلم فيها الناس عدم الخوف؟

قالت بخفة ظلها:

– ليصبح كل واحد منهم محبا للحوار مثل سوزان..

– الحوار لغة العصر..

– ولا تنس الإنترنت..

عانقها بعد أن قال: الحوار أماننا في عصر جنـون العلم..

(٢١)

فتحت نور القناديل الباب وهي تقول:

– أخيرا جئت يا جمل..

ضحك وهو يقول:

– أرجو ألا أكون متأخرا..

– اجلس يا جمل..

وضحكت.. قال:

– ماذا يضحك يا سيدة الناس؟

– كنت أعرف أنك تقف على الباب!..

– حاسة نور القناديل التي لا تخطئ!

وشملته بنظرة فاحصة وهي تقول:

– نتفق أولا..

– نحن متفقون..

– نصيبك ونصيب الجماعة

– كلنا غرب..

– ولكننا نحن أمريكا..

– ونحن أوربا..

وضحك الجمل نصف ضحكة وقال:

– وحدنا أبو كرش على طرده..

وقال في نبرة جادة:

– لا بد من التحرك السريع.. فالطبخة قد نضجت.. ومصالحنا واحدة والهدف واضح..

قالت نور:

– الاستيلاء على دار نظلة مرزوق

وأخرج جريدة من الحقيبة السوداء وهو يقول:

– وجليل قد أعد أرض المعركة..

وضحكت وهي تقرأ مقالة كتبها جليل يهـاجم فيهـا الشيخ أمين لأنه طرد عم قناوي وقالت:

– غبي..

– وهذا من مصلحتنا..

– المهم الآن أن موعد المعركة قد حدد

– هات ما عندك يا صاحبي..

قال الجمل:

– نسيم سيتزوج سوزان.. وننتهز الفرصة ونعرض على الشيخ إقامة حفلة الـزواج فـي دار نظلـة مـرزوق الأثرية.. ونتولى الصرف عليها ببذخ.. نقيم للخـان حفلـة

كألف ليلة وليلة. وننتهز انشغال أهـالي الخـان بـالفرح.. ونتخلص من جليل..

قالت:

– نقتله؟

– انتهى دوره.. ويعرف أكثر من اللازم..

– البزنس لا يعرف العواطف..

وقال باسما:

– على كل حال نحن لا نقتل.. نحـن نقـيم فـرح العصر وسنترك لطموحه الذي لا سقف له مهمة شنقه..

وأشعل سيجارا لها فقالت:

– لا أشرب السيجار

أخرج علبة سجائر من حقيبته وقال:

– أعرف.. وأحضرت لك السيجارة الهوانمي التـي تحبينها..

وبعد أن أشعل لها سيجارة قال:

– ونبدأ اللعبة والشيخ مخدر بزواج العصر..

وقالت باسمة:

– وكذلك أهل الخان..

– ورأس الذئب قد طار.. وتوقعين معه وثيقة إيجار دار نظلة مرزوق تسعا وتسعين سنة قالت ضاحكة:

– قناة سويس جديدة.

وتوقعت نور أن يضحك الجمل ولكنه قال بجدية كما لو كان يقرأ من كتاب:

عندما أمر والي مصر بإضاءة شاطئ النيـل بـألف مشعل فضلا عن المصابيح التي أوقدها خاصة القوم وأسرع الألوف من المسلمين والمسيحيين في إظهار الشراء ويأكلون في أوانٍ من ذهب ويتزينون بفاخر الحلـي بينمـا تصـدح الموسيقى وتتمايل الراقصات.. فقالت:

– تحققون له حلمه؟! الماضي يعود!!

– تقنعه بأن الحلم يتحقق حتى يوقع..

– ولكن أهالي الخان..

– عقلية القطيع.. يصـفقون وراء مـن يصـفق.. وسنرتب كل شيء.. والبركة في سيدة الناس..

قالت ضاحكة:

– تستفيدون من حب الخان لي..

وقبل أن تقول: وما نصيبي؟ قال: جماعتي قررت أن تكون سيدة الناس مديرة المشروع فقالت في لهفة:

– أريد أن أقابل جماعتك..

قال الجمل باسما:

– أنا للآن الجماعة..

ثم قال وهو يبتلع دخان سيجاره:

– لا تتعجل سيدة الناس.. فالزمن أصبح زماننا.. وستقابلين الرئيس في الوقت المناسب..

(٢٢)

-١-

كما لو أنها لحظة خارج الزمن.. الخان يتلألأ بالنور.. والموسيقى تصدح في جنباته والأهالي سكارى بالفرحة.. فالليلة ليلة فرح ابنتهم سوزان.. سيعقد قرانها على نسيم.. صار فارسهم منذ عاد من المحكمة بالبراءة.. أشعرهم بأن هناك عدلا.. فلا يمكن أن تحاكم ابنتهم لأنها تسمع الموسيقى.. لقد رفعوا صوت الموسيقى التي تحبها سوزان وحاكموها من أجلها.. ليؤكدوا للدنيا براءة ابنتهم التي يحبونها فهي عروسة الخان.. وستزف الليلة إلى فارسهم نسيم عاشق الزهور.. سيأخذ زهرة الخان ويطير بها إلى جزر هاواي.. لا تكفي الورود التي ملئوا بها دار نظلة التي فتحت أبوابها ليقام فيها الفرح.. فلا بد أن تذبح الذبائح وتمد الموائد.. ويطعمون أهل ا قبل أن يأكلوا.. فراحوا يتسابقون في ذبح الذبائح.. وجاءت فرق الموسيقى التي أرسلها تجار سوق القناديل مشاركة منهم للخان في فرحته.. وراحت تعزف والرجال يرقصون ويلوحون بعصيهم كما لو كانوا يلوحون بها في وجه الشيطان الذي جعل الخان يمضي أياما

حزينة وسوزان في سـجنها.. والنسـاء تزغـرد وفتيـات ترقصن..

لقد اتفق أهالي الخان – دون اتفاق ـ أن يجعلوا هذه الليلة ليلة عمر الخان.. يقدمون لشيخهم الذي أعطاهم حبـه وأقام عدله وحمى الخان من فتوات سـوق القناديـل.. كـل حبهم.. فليلة فرح حفيدته التي يحبهـا.. لـن تكـون ليلـة واحدة..بل ستكون أربعين ليلة.. ليست أقل من بنات الـولاة الذين حكموا المحروسة، وروت الربابة التي كانت تعزف في منتدى الخان كثيرا عن هـذه الأفـراح.. لا يسـتطيعون أن يقدموا لها المجوهرات والذهب كما كانت تقدم لبنات الولاة.. ولكنهم يستطيعون أن يقدموا حبهم وهـو أغلـى مـن كـل مجوهرات الدنيا وذهبها!!

وأطل الشيخ على الخان مـن مشـربيته فـي دوره العلوي.. ونور القناديل تقف بجواره.. وقال بدموعـه التـي تسيب من عينيه من شدة تأثره بفرحة الخان الغامرة:

– لا أعرف يا نور كيف أرد لهذا الخان الطيب كـل هذا الحب.. كلما أعطيتهم قطرة حب.. غمروني بفيضان من

حبهم.. أفكر في هدية غير مسبوقة.. أهديها لهم فـي هـذه الليلة المباركة..

وجدت فرصتها فقالت بسرعة:

– هدية العمر..

قال وقد شعر بدنو الأجل:

– لم يبق من العمر الكثير.

ولم ينتبه إلى عتابها له لأنه يتذكر الموت في فـرح سوزان، فقد تذكر أميرة التي أعطته شهد الحب.. لقد وعدته بأن لا تتأخر.. يريد منها أن تشهد مظاهر حب الخان لـه.. ويدفعها هذا لتعلن موافقتها للزواج منه.. ليعلنها لأهل الخان في ليلة العمر ويضع نهاية للشائعات التي تحاول أن تشـوه حبه النقي لها..

فطنت نور إلى أنه يفكر في أميرة فقالت باسمة:

– البرنسيسة لن تتأخر أكثر من ذلك..

ضحك سعيدا. فقالت نور:

– قادمة لتشاركك لحظة إعلان الهدية..

– أية هدية يا نور؟

وأشارت بيدها إلى الأهالي الفرحين وقالت:

– هديتهم التي ينتظرونها.. لتجعل فرحتهم دائمـة..

أنت تعرف خوفهم الدائم من غارات فتوات السـوق الـذين ينهبون طعامهم ويتركونهم جوعى.

– أنا الضمان لهم..

– ولكنهم ماذا يفعلون بعدك.. بعـد عمـر طويـل؟ ينبغي أن توفر لهم الأمان ولأولادهم..

– هـذا همـي الكبيـر.. ولكـن كيـف؟ دلينـي يا سيدة الناس..

قدمت له وثيقة تأجير دار نظلـة مـرزوق المعـدة وناولته قلما ذهبيا وقالت:

– وقع..

– ما هذا؟!

– تسع وتسعون سنة من الأمان..

جرت نظرته بسرعة على الوثيقة وقال في اندهاش:

– تأجير دار نظلة مرزوق؟!

– الشركة العالمية ستقيم مطعما

– مطعم في دار الأجداد؟

– على أحدث طراز.. يفتح أبوابـه لأهـل الخـان بالساندويتش الرخيص.. قفزت إلى رأسه عبارة: على جثتي التي قالها لها عندما حدثته عن رغبة جليل في الاستيلاء على دار نظلة مرزوق فأوشك أن يقول لها: على جثتي.. ولكنـه أبصر سوزان تهل عليه بفستان الفرح.. فاحتضنها بدموعـه وهو يقول:

– عشت لأرى هذه اللحظة يا عمري الجميل..

شعرت نور بأنها قد كسبت المعركة.. لقد أرسلت لها لتحضر لتستخدمها في التأثير عليه.. فقالـت سـوزان وقـد عرفت من نظرة نور أنه لا يريد أن يوقع:

– أنا غضبانة منك يا جدو..

– عمري يغضب مني في لحظة عمري!

قالت بدلالها:

– لماذا لم توقع؟

– لا بد من أن أقرا الوثيقة جيدا يا سوزان فـالأمر يتعلق بالخان.

قالت سوزان في ثقة:

– قرأتها.. وهي من أجل أمان الخان الذي تحلم به..

أمسك القلم فقالت نور:

– وقع يا شيخنا الطيب حتى تحمي الخان من جليـل وأنت تعرفه جيدا.. لقد هاجمك في جريدته بعـد كـل مـا أعطيته له..

قال الشيخ في غضب:

– اللعنة على جليل..

قالت سوزان:

– هديتك للناس في يوم عرسي..

ودخلت أميرة عليهم.. فلم يقو على أن يقاوم شعوره بالحب لها فاحتضنها..

فقالت نور منتهزة الفرصة:

– الخير على قدوم أميرة السعد

قال الشيخ بفرحة عاشق التقى بعشقه:

– سأوقع من أجل عيني أميرتي..

ووقع وهو يقول لأميرة:

– لقد وقعت على تأسيس الشركة العالمية لدار نظلة مرزوق.

فقالت البرنسيسة دون أن تعرف شيئا عن الشركة:

– أنا شريكة فيها..

قال الشيخ بفرحته كما لو أن الحلم قد أصبح حقيقة في يديه:

– حان الوقت يا أميرتي ليأكل الناس في أطباق من ذهب وتعزف الموسيقى وترقص الراقصات كما كانوا يفعلون أيام أجدادهم وتصبح لياليهم أفراحا دائمة.

وتذكر قنديل والد نور فقال:

– أريد أن يشاركنا الرجل العجوز لحظتنا التاريخية..

اضطربت نور.. لقد مرت على أبيها قبل أن تجيء إلى دار الشيخ وطلبت منه أن يؤيدها في مشروعها فثار وقال لها: ابعدي عن دار نظلة مرزوق يا نور.. ليس من حق أحد أن يقترب من دار الأجداد.. الدار تاريخ الخان.. والتاريخ ليس للبيع.. فقالت:

– لم يعد يحتمل أبي السهر.. الشيخوخة هدته.

فقال: أمين وقد ارتاح لعدم حضوره فهو يخشى معارضته:

– كنت أريد مباركته..

ودخل بعض الحراس ليقول أحدهم:

– جليل قتل..

وكانت نور تنتظر سماع الخبر فقالت بسرعة:

– اخفوا الخبر عن الخان.. الليلة ليلة فرح سوزان.. وإعلان الخبر الآن لن يعيد لجليل الحياة.. قبلتهـا سـوزان وانزعجت أميرة.. وحسم الشيخ الأمر قائلا:

– نفذوا ما قالته نور..

وتذكر أن العريس لم يأت بعد فقال:

– أين نسيم؟ ابحثوا عنه..

ونظر القناديلي إلى البرنسيسة، يسـألها بنظرتـه أن تعلن موافقتها على الزواج ليعلنها لأهالي الخـان.. ولكنهـا لاذت بصمتها..

-٢-

فتحت الدكتورة نفيسة باب الحجرة التي أسـتأجرها فوق السطوح في خان مجاور لخان القناديل لتجد نسيم يقـف أمامها لتقول بذهولها:

– تترك العروسة وتجيء لنفيسة؟!

تود أن تسمع منه.. يقول: لأنـي أحبـك.. ولكنهـا سمعته يقول:

– لأطمئن على عم قناوي..

– وفرحك؟

تريد أن يقول لها أنه لن يتزوج سوزان ولكنه قال:

– أي فرح؟ قولي المأتم..

تصورت أنه قد علم بموت أخيه خليل.. ولكنه قال:

– يبيعون دار نظلة مرزوق في ليلة عرسي..

عرفت أنه لم يعلم بموت أخيه.. أشفقت عليـه. لـن تخبره. لاذت بصمتها. سمعته يقول:

– أعطيت كل عمري لها.. وعندما اخترت سـوزان لأتزوجها كنت أختار المستقبل..

وقال في أسى:

– وفي ليلة عرسي يسرقون المستقبل..

– وماذا ستفعل؟

قال بحماسة:

- لن أسمح لهم بهذا ما دامت هناك نقطة دم واحـدة تسري في عروقي.. دار نظلة مرزوق وطني.. ولـن أبيـع وطني بكنوز الأرض..

وأرادت أن تقول له: وسوزان.. ولكنها قالت:

- والناس؟..

قال بانفعالة:

- يرشدن ناس الخان بليلة من ألف ليلة وليلة..

تريد منه أن يشعل الخان نارا فقالت:

- ولكن أهل الخان لا يقبلـون أن تبـاع دار نظلـة مرزوق للأجانب حتى لو رشوهم بكنوز الأرض.. ينتظرون من يبصرهم ويقودهم.. وأنت يحبونك.. ويصغون لكلمتك.. تستطيع أن تذهب إلى الخان وتقلب الدنيا فوق رءوسهم..

قال بحزنه:

- ولكن حبهم للشيخ أقوى من تأثيري عليهم.. يحلم بهذه الليلة.. ولن يسمح لأحد بإفسادها.. يسميها ليلة العمر..

قالت ساخرة:

- سحرهم كما سحرك حبك لسوزان..

قال بضعفه:

– الحب ضعف يا نفيسة..

قالت بغضبها:

– الحب قوة يا نسيم.. تستطيع أن تذهب وتصـرخ بأعلى صوتك في الخان وتقول: هذا ليس فرحي.. هذا مأتم!

– لا أستطيع.. فأنا أضعف من أقول: لا.. وسوزان تقول نعم.. لم تجربي العشق يا نفيسة الذي يجعلك تذوبين في نظرة الحبيب..

– هذا جنون..

– الحب.. هذا الجنون يا صديقتي

صدمتها كلمة صديقتي.. جعلتها تفيق.. لن تتحـول الصداقة إلى حب ولن يتزوجها، فقالت مستسلمة:

– ستتزوجها؟

– نعم.. سأتزوجها..

استفزتها نبرته.. جعلت شيئا من عـدم الاستسـلام يتحرك في داخلها فقالت:

– حتى لو قلت لك أنهم قد قتلوا جليل وأمر الشـيخ بإخفاء الخبر عن أهالي الخان..

وكأن الدنيا قد انهدت فوق رأسه وهو يقول:

– قتلوا أخي..

– ذبحوه في شقته في الخان.. وشت به وداد.. دلتهم على مكانه..

– وشت به وداد.. صديقته..

– تحولت الصداقة إلى حب.. واكتشفت أنه قد عـاد إلى صفاء.. وسيتزوجها.. فانتقمت منه..

انفجر بالبكاء.. فقالت نفيسة وقد شعرت بالتعـاطف معه.. لتواسيه:

– دم جليل لن يذهب هباء: لا تذهب إلـيهم.. إنـي خائفة عليك.. لا قلوب لهم..

وأمسكته من يده وقالت:

– تزوجها.. فالصداقة أقوى من الحب..

قال وهو يقاوم البكاء:

– سأتزوج سوزان في خان القناديل المنتصر علـى قتلة جليل..

–٣–

وقفت صفاء تصرخ في أهل الخان:

– ذبحوا جليل وأنتم ترقصون..

لقد اشتهرت صفاء بين أهل الخان بصدقها.. ولكنهم لا يريدون أن يصدقوا اللحظة أن الموت قد هبط عليهم فـي ليلة عرس سوزان الذي هو عرس الخـان فاسـتمروا فـي رقصهم.. فصرخت فيهم:

– إذا لم تصدقوني.. اصعدوا إلى شقته.. سـتجدونه ملقى كالذبيحة..

علا صوت غريب في الخان قائلا:

– جزاء الخائن

قال أبو الفضل متجاهلا صوت الغريب:

– ترقصون على جثة ولدكم!..

قالت صفاء:

– أخبرهم يا والد الشهيد..

وصرخت قائلة:

– الانتقام من القتلة..

جذبها رجال غرباء وأخذوها - رغم مقاومتها - إلى خارج الخان لينزل الشيخ أمين من دوره العلـوي غاضـبا ليتوقف الرقص ويقول:

– ارقصوا..

ارتفع صوت" أبو الفضل" وهو يقول:

– نريد أن نتأكد مما تقوله صفاء يا شيخ الخان..

قال الشيخ غاضبا:

– لا موت في ليلة فرح سوزان.. هذه ليست ليلة عرس حفيدتي.. هذه ليلة عرسكم يا أهل القناديلي.. ولا تسمحوا لأحد بأن يطفئ أنوار فرحكم.. فتوات القناديل يتربصون بكم.. لا يريدون أن تفرحوا ويعود لكم زمن أجدادكم عندما كانوا يشعلون المشاعل ويفرحون..

قال ضبش لوالد الشهيد:

– كم دفعوا لك لتطفئ أنوار فرحنا؟!

والتف حول الرجل عدد من الغرباء ومنعوه من الكلام والقناديلي يقول له: تكلم.. أخبرهم.. كم دفعوا لك؟ أرأيتم.. أعداء الخان كثيرون..

صاح صوت: خائن..

صرخ أبو الفضل وقد استطاع أن يقاوم من أرادوا أن يمنعوه من الكلام:

– والد الشهيد لا يخون

وكما لو أن القناديلي لم يسمع ما قاله أبـو الفضـل وقال مخاطبا أهل الخان الذين التفوا حوله:

– تذكرون عندما كنت أقول لكم.. أجـدادكم كـانون يأكلون في أوانٍ من ذهب.

قال ضبش بسرعة:

– مذكور هذا في كتب التاريخ..

قال الشيخ وقد وجد الدليل على صدق ما يقول:

– أخبرهم يا جبرتي..

قال ضبش وقد شعر بأهميته:

– ذكره الرحالة المسـعودي سـنة ١٠٤٦ وسـجله العلامة الغربي أولج فولكف في كتابه القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة.

قال الشيخ وقد شعر بالانتصار:

– أسمعتم ما يقوله الأجانب ويسجله التاريخ.. أنا لا أخدعكم.. أنا شيخكم الأمين.

صاح عجمي الذي لا يحب" أبو الفضل":

– يحيا الأمين..

فرددوا الهتاف خلفه..

فرفع الشيخ يده قائلا:

– لا أريد هتافا.. ليس وقته. وإنما وقت الفرح.. لقد حزنتم كثيرا.. وآن الوقت لأن تفرحوا.. انتهت أيام الأحزان يا خان!

ووجدت نور القناديل أن فرصتها قد حانت لتتكلم وتجعل الخان يبتلع الطعن ويوافق على تأجير دار نظلة مرزوق فقالت في شيء من الخوف:

– أهلي..

فانفجر الخان بالتصفيق..

فزال خوفها وقالت وهي تشير إلى الشيخ أمين:

– لا تصفقوا لغير هذا الرجل الذي أعطى كل عمره لكم.. وحده الذي يستحق التصفيق..

فصفقوا للقناديلي فأحنى رأسه لهم..

فقالت:

– لم أكن أريد أن أتكلم.. ولكن هناك شهادة حق.. ينبغي أن تقال في حق شيخكم في يوم فرحكم هذا.. لقد بذل الرجل جهدا فوق الطاقة ليقنع شركة عالمية بأن تخص خانكم دون الخانات الأخرى باتفاق يوفر الأمان لكم ولأولادكم..

وكان هناك ترتيب بأن يهتف أحـد الرجـال: يحيـا الساندويتش.. بعد أن تقول نور: تأجير دار نظلـة مـرزوق لتصبح مطعما؛ لبيع السـاندويتش.. ولكـن الهتـاف سـبق الكلام.. وبرغم أن معظم الذين يقفون في الخان لم يفهمـوا مغزى الهتاف فقد هتفوا خلفه: يحيا الساندويتش!!

شعر الشيخ بالانتصار فقال:

– هذه هي هديتي لكم في ليلة...

وبدلا من أن يقول: عرس سوزان قال: عرسكم!

فانطلقت بعض الزغاريد.. وعزفت فرقة حسـب ا موسيقاها فأشار الشيخ بيده لتتوقف وقال منتشيا بالنصر:

– لقد أرادوا أن يبدءوا التنفيذ.. ولكني طلبت مـنهم أن يمهلوني حتى أعرض عليكم الأمر وأسمع رأيكم، فالـدار داركم والمستقبل مستقبل أولادكم..

فقال شادي:

– أنت أدرى بمستقبل أولادنا منا.. وقع ما تشاء..

قال الشيخ وقد شعر بأنه أصبح زعيما:

– لا يا شادي.. عشت طول عمري أؤمـن بكـم.. وأحرص على أن أسمع كلمتكم.. أنا ديمقراطي..

هتف ضبش قائلا: يحيا الديمقراطي

ولم يردد أحد الهتاف.. فقال شادي بصوت عالٍ:

– بالإجماع يا شيخنا..

فراح أهالي الخان يرددون: بالإجماع..

انتظر الشيخ حتى تطول فترة هتافهم وقال بصـوت منتش بالنصر:

– باسمكم أعلن دخول خان القناديلي العالم الجديد..

وكما لو أن أهالي الخان قد فقدوا صوابهم.. فراحوا يهللون ويصفقون ويرقصون..

وأشارت نور بيدها لضبش كما اتفقت معه من قبـل فصاح:

– لا سور بعد اليوم يفصل بين أهل القناديلي وبـين دار نظلة مرزوق.. وأشار بيده لبعض الرجال قائلا:

– اهدموا السور..

ودخل البلدوزر ليهدم جزءا من السور..

وظهر عم قنديل واندفع نحو البلـدوزر واعترضـه بجسده النحيل وهو يقول بصوته الضعيف:

– لن تهدموا سور دار نظلة مرزوق إلا على جثتي..

تصور الشيخ أنه بمجرد أن يقول أنه قد وقّع.. فإنه سيكف عن اعتراضه للبلدوزر.. فقال بصوت واثق: وقعت يا قنديل.. ولكن الرجل العجوز قال بصوت خرج قويا:

– توقيعك باطل يا أمين.. لم نمنحك توكيلا..

أوشك الشيخ أن يقول: لقد وافقوا بالإجماع ولكنه عز على نفسه أنه يقول أنه يستمد توقيعه من هؤلاء الذين يحركهم ضمير بائع الكتب فقال بعنجهيته:

– ورثت المشيخة أبا عن جد..

فقال قنديل بقوة كما لو أنه أصبح شابا وهو يلوح بيده في وجهه:

– نحن لا نورث..

انفجر الشيخ غضبا وهو يقول:

– أنا.. أنا الشرعية..

قال قنديل:

– لا شرعية لمن يبيع تراث الأجداد للأجانب..

أسرعت نور تقول:

– ليس بيعا يا أبي.. بل إيجارا..

فقال لها زاجرا:

– اسكتي يا نور..

اتجه الشيخ إلى أهالي الخان الذين أصابهم الـذهول فلاذوا بصمتهم قائلا:

– أنا أمين محمود القناديلي

فقال الرجل العجوز بصوت ساخر:

– أنت لا أمين.. ولا محمود.. ولا قناديلي

صاح الشيخ في رجاله:

– احملوا هذا المخرف خارج الخان..

ولكن البلدوزر كان أسرع مـن الرجـال، وتحـرك وهرس عظام قنديل وهو يصيح: باطل.. باطـل.. لتصـرخ نور: أبي

ويختلط دم الرجل العجوز بحجارة سور دار نظلـة مرزوق الذي تحطم جزء منه..

وكما لو أن أهل الخان كانوا ينتظرون أن يختلط لحم عم قنديل بحجارة سور نظلة مرزوق ليتذكروا أنه رفض أن يستجيب لقريبه ضابط الثورة ويخرج من الخان ويعيش معه

في قصره وظل يعيش معهم يعاني معاناتهم.. وعندما خـرج من بيته القديم خرج ليقول: لا.. لهدم سور دار نظلة مرزوق ليهرس البلدوزر جسده وهو يقول: باطل.. باطـل.. اقتلونـا ولن تهدموا السور.. فتوقف البلدوزر وهرب الرجال الغرباء وهم يرجمونهم بالحجارة، ونال الشيخ أمين شيئا من الحجارة فارتمت عليه البرنسيسة تحميه من الحجارة بجسدها ونـور تصرخ وسوزان تبكي وصاحت صفاء التي عادت للخان:

– انتقموا لدم جليل..

قال عاطف سعيد:

– نحن نثأر لدم قنديل..

وسألت سوزان عاطف بدموعها:

– أين نسيم؟

فلوح عاطف في وجهها بقبضته وهو يقول:

– يسقط الساندويتش!!

–٤–

فتح الشيخ المشربية التي تعـود أن يتحـدث منهـا لأهالي الخان في الأحداث الجسيمة.. وحملق في ظلام الليل في دار نظلة مرزوق يريد أن يطمئن عليها فقد شـعر بـأن

البلدوزر كما لو أنه يمشي على جسده وهو يحطـم السـور ويمزق جسد قنديل..

أبصر في الظلام أحدا يجلس بجوار سور الدار الذي تحطم.. فقد انطفأت مصابيح الخان فظنه ضبش وكان شادي هو الذي يجلس بجوار الدار.. يحرسها فقال:

– أنا شادي يا قناديلي..

وتوقع أن يسأله الشيخ عن ضبش فقال:

– هرب خوفا من قتله فقد حملوه مسئولية ما حدث..

سمع شادي صوت بكاء الشيخ فقال متأثرا:

– لا تبك يا شيخنا..

فاختنق صوت الشيخ وهو يقول:

– أبكى يا شادي كالنساء لأنني لم أحافظ علـى مـا ورثته عن أجدادي..

وكان النهار يتفتح.. فأبصر الشيخ شادي يقترب من المشربية.. يرتاح إليه ويحتاج لمن يسمعه فقال:

– أخطأت يا شادي.. تصورت أنني في اسـتطاعتي أن أعيد الزمن الذي كان أجدادنا يأكلون فيه في أطباق مـن ذهب بتأجير دار نظلة للأجانب.. ولكن ما حدث في الخـان

جعلني أكتشف أنني كنت واهما.. وأنار مـا فعلـه الرجـل العجوز بصيرتي.. وفطنت إلى أنه ينبغي أن نتفاهم مع هـذا العالم الجديد الذي يغزونا بما يسمونه العولمة ونحن نحمـي دار الأجداد بأجسادنا..

عرفت هذا بعد أن قذفوني بالحجارة..

قال شادي متأثرا:

– عمري فداء القناديلي..

فقال أمين:

– الكلام لم يعد يفيد.. لم أعد أصلح لكم.. لذا قررت أن أعتزل وأرشح لكم علي عويضة.. صحيح أن ليس مـن حقي أن أفرض عليكم أحدا.. ولكن حبي لكم جعلني أختـار لكم رجلا قد انتصر على نفسه.. استغنى عـن ذهبـه وداس بقدميه أرض هذا العالم ويؤمن بالحوار..

لقد طلب نسيم مني أن أحول الأرض الفضاء التـي أملكها في الخان إلى حديقة تتحاورون فيهـا.. ولكنـي لـم أستجب له.. ولذا قررت أن تكون هذه الحديقة هديتي لكم في يوم اعتزالي تجتمعون فيها وتتحاورون.. فالحوار يعطـيكم

صلابة المقاومة لهذا العالم الذي يغزوكم بثقافة السـاندويتش لتكونوا أكثر تسامحا وأكثر تقبلا لأفكاره..

وكانت الشمس قد سـطعت.. وفـتح أهـل الخـان نوافذهم.. وخرجوا من بيوتهم.. فارتفع صوته قائلا:

– ولن تتسامحوا يا أهالي الخان.. مادام دم قنديل قد روى حجارة دار الأجداد.. فقدركم أن تقاوموا الذين يقفـون على باب خانكم عبر كل الأزمنة..

وأجهش شادي بالبكاء فقال أمين القناديلي:

– لا تبك يا شادي.. فالخان في حاجـة إلـى فنـان يعزف على مزماره وهو يحرس دار نظلة مرزوق..

القاهرة يناير ٩٨